دم الحسين

القصة الكاملة لقتل الحسين والانتقام من القتلة

إبراهيم عيسى

دَمُ الحُسَـــيْن

إبراهيم عيسى

قصة قتل سيدنا الحسين والانتقام من القتلة

* * * * * *

دم الحسين
القصة الكاملة لقتل الحسين

والانتقام من القتلة

فهرس

الإهداء...

إلى أبي وأمي

إبراهيم

كم مرة بكيت وأنا أكتب هذا الكتاب؟

فجأة حضر التاريخ كله في حجرة مكتبي، وجدت السيوف اللامعة، والدم المراق. ودفقات الجثث، وصراخ الثكلى، والأحصنة اللاهثة، والحر القائظ، وألسنة النار، وألوان الخيانة، وعتمة الغدر، ودهاليز السياسة، وستائر القصور، وجموع الرءوس المقصوفة والمذبوحة، وجدت كل هذا على المقعد المقابل – وحول حواف المكتب وفوق المكتب وتحت أوراقي وخلف ظهري، واندفع الدم ساخنًا وسخيًا على أقلامي وأوراقي وكتبي.. حتى ظننت أنها النهاية.

ثم إنَّني رأيت الحسين.

* * * *

لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون..

ولا يستوي – كذلك – الذين يتعلمون مع الذين لا يتعلمون...

والتاريخ معلم عظيم..

ليس، إذن، من قبيل الصدفة أن يكون المفسر العلامة «ابن كثير» صاحب أهم التفاسير الشارحة للقرآن الكريم، هو نفسه صاحب المجلد الضخم "أهم مراجع التاريخ الإسلامي قاطبة، وليست صدفة – كذلك – أن يكون تاريخ الرسل والممالك للإمام الطبري واقفًا على قدم المساواة مع عطاء الطبري الفكري والديني والتفسيري. وإنهما – وغيرهما – عرفا معنى التاريخ وأنه الساحة المفتوحة لاختبار واختيار الدين والدنيا. التاريخ – قصص وحكايات وسِيَر – مدرسة حقيقة لكل تلاميذ الحقيقة.

والغريب أن أحدًا من الذين يتشدقون ويفتون ويرمون الناس بالفتاوى لم يعطِ نصف وقته – أو ربعه – لقراءة التاريخ وفهمه وليعلم يقينًا أن السياسة غير الدين وأن الدين ليس مطيَّة السياسة وأن أناسًا رفعوا المصاحف والسيوف – والبنادق – أمام بعضهم البعض رغم أنهم لا يختلفون كثيرًا.. ولا أبدًا، في شروح الآيات وفقه السنة – وإنما استخدم كل طرف الآيات والأحاديث لهثًا وراء الحكم والنفوذ والمال و... قطع الرقاب.

الدين كانت معركته سهلة..

أما الدنيا فهي معركة دامية..

وأهم ما يفصح به التاريخ أن الدين قد تـم اسـتعماله واستخدامه، ولا يزال، لصالح الدنيا! كما أن القـيم الشـريفة والخصال الرفيعة تدهس دومًا تحت حوافر النخيل وجنـازير الدبابات!

* * * *

هل وقته الآن الكلام عن الحسين؟

نعم.. في كل وقت نحن في حاجة إلى هـذا الـزمن، ورغم كثرة ما كُتب – وقُرئ – عن الحسين سـيد الشـهداء وسيد شباب أهل الجنة (جعلنا الله من شبابها.. يا رب).

إلا أن كثيرًا من العيون والأقلام أغفلت الحديث عمَّـا بعد مقتل الحسين.

ماذا جرى تحت اسم دمائه الطاهرة؟

هل حقًا يمكن أن ننخدع بالشعارات واللافتات بدءًا من "يا منصور أمت" وانتهاءً بـ "الإسلام هو الحل" لمجرد نبـل وعظمة وأهمية الشعار!!

إن الشعار يظل مهمًا كان شعرًا.

أما الذي يطبقه.

أما كيف يطبقه.

فهذه هي القضية!

* * * *

ستجد في هذا الكتاب شيئًا مما أريد أن أقوله.. لكن لن تجد كل شيء تمنيت أن أقوله، وعليك أنت أن تقرأ وتخرج بما تريد، لكن ما أضْمَنُه لك أمرين: إنك ستحب سيدنا الحسين أكثر.

والثاني أنك سترى هولاً لا تطيقه ودماءً لم تعهدها وأحداثًا أغرب من أن تتخيلها، وكل هذا حقيقي وسنده الأساسي ابن كثير والطبري.

* * * *

عندما أعدت قراءة كتابي هذا، قررت أن أحذف منه كثيرًا وأضيف إليه أكثر.. لكنني كلما كنت أحاول عدتُ فرأيت الدم المراق والأحصنة اللاهثة والسيوف اللامعة

وألسنة النار وألوان الخيانة ودفقات الجثث وصراخ الثكلى وجموع الرؤوس المقصوفة والمذبوحة...

فلم أحذف.. ولم أضف...

* * * *

إبراهيم عيسى

الخيل فوق صدر الحسين

أنت يا حرحر(*)

وقف الحر بن يزيد على فرسه، ينظر بعيون دامعة، وقلب واجف وبدن مرتعد، برعشة أخذت عليه جسده، وأنهكت قلبه، يتحرك بفرسه دائرًا حول نفسه، ملقيًا نظراته على الصحراء الممتدة أمامه.. وقد تحكمت فيه أفكاره، وسيطرت عليه أحاسيسه، بدا وكأنه ليس الحر بن يزيد أقوى فرسان قومه وأعظم قادة الكوفة العسكريين..

كانت حوافر الفرس تخبط في الرمال، فتثير غبارًا، وتفجر ترابًا فوق تلك الربوة التي اعتلاها الحر.

وبين عمرين وحياتين وقدرين ومستقبلين.. يتردد..

عن يمينه جيش الحسين بن علي بن أبي طالب، الحسين ابن بنت النبي – صلَّى الله عليه وسلم – يحاصره الجنود والحطب والقصب والخشب والنار والخيام التي يتخذها ابن بنت رسول الله وقاية لظهره وحماية لأهله..

تتصلب عيونه في هذه البقعة من كربلاء، على ابن نبيه، ذلك الذي يُصلِّي عليه ويسلم ويرجو عفوه وشفاعته،

(*) تدور الأحداث بين عامي ٦٠ ، ٦٧ هجرية.

ويقاتل من أجل دينه، ويُعلي في بناء رسالته، بسيفه البتار وكلمته الحارة وقرآنه المحفوظ.

لكز الحر بطن فرسه وهو يسأل نفسه:

ما الذي أوقعني؟ من الذي قادني إلى تهلكة نفسي، وبيع الدين بالدنيا؟

تذكر أوامر عمر بن سعد قائد جيش يزيد الزاحف بأربعة آلاف جندي وفارس يطلبون دم الحسين أو جره إلى قصر الكوفة حيث ينتظره زياد بن مرجانة، أمير يزيد بن معاوية على الكوفة، بدمامته ووحشيته، وسوء خلقه وسوءة خلقته، يفترس عظم ابن بنت النبي العظيم وينهش في لحم رسالته وحلم إمامته..

ما الذي أوقفني هنا يا أبناء الأفاعي؟

حدَّث الحر نفسه، وهو يلتفت لجيش عمر بن سعد، وحسم أمره وأجبر شيطانه على التراجع..

لقد سأل عمر بن سعد:

- مقاتل أنت هذا الرجل؟ (يقصد الحسين)

فأجابه عمر:

أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي..

ليست المسألة تهديدًا لكي يتراجع الحسين عن طلب الخلافة، وليست مجرد إرهاب ليسلم ليزيد بالبيعة..

إن الأمر جد.. وإن الهلاك قادم.. والحسين مقتولاً لا محالة، فهو يقف بين ثلاثين وأربعين رجلاً فقط من أهله وأنصاره وعشيرته، وحده في هذه الصحراء الشاسعة القاتلة.. خلفه النيران الناشبة في خيامه.. وأمامه أربعة آلاف فارس يقودهم الطامح للإمارة والأفاق، والمريض بالسلطة، والذي باع دينه مقابل كيس دراهم، والذي أجبره الخوف وأضعفته النفس السيئة فاندفع لمقاتلة ابن بنت النبي ولا كذب، ابن علي بن أبي طالب، ابن فاطمة بنت محمد.. يا الله ..

ما أضيع النفس وأضعف القلب وأخف الثقل يوم العرض على الميزان.. سمع الحر حوافر فرس تقترب، وارتجاج جسدٍ فوق ظهر الفرس وهمهمة بعيدة تدنو..

إنه المهاجر بن أوس صاحبه ورفيقه في رحلة الصحراء وصفوف الجيش وسكن الكوفة والخروج لقتال

"الديلم" فجرًا، والصلاة في المسجد والتسبيح في العشاء، وجلسات الشِّعر أمام نيران تدفئ القلب والصدور في ليل الكوفة..

زعق فيه المهاجر منتفضًا فوق حصانه:

- والله إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة رجلاً، ما اخترت غيرك... فما هذا الذي أرى منك.

التفت إليه الحر حرحرًا – لأول مرة منذ جاء لمقابلة الحسين:

- إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا اختار على الجنة شيئًا ولو قطعت وحرقت.

دفع الحر فرسه فانطلق بالحوافر وزغرد بالصهيل.. والمهاجر يتابعه مندهشًا مذهولاً..

دخل الحر بفرسه إلى حلقة الحسين، الصغيرة المقاتلة الشجاعة المؤمنة.. اقترب منه لاهثًا.. واثقًا.. مطمئنًا:

- جعلني الله فداك يا ابن بنت رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في

الطريق.. وإني جئت تائبًا مما كان مني إلى ربي ومواسيًا لك بنفسي.. وحتى أموت بين يديك.. أفَتَرَى ذلك لي توبة؟!

نظر إليه الحسين ابن بنت رسول الله

وقال:

- نعم يتوب الله عليك ويغفر لك..

ما اسمك؟

فقال: أنا الحر بن يزيد.

قال الحسين:

أنت الحر كما سمَّتك أمك، أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة.

* * * *

لا هذا الأمير
ولا هذه الإمارة!

خرج الحسين من المدينة إلى مكة في ليل ألقى سدولَهُ وستائره ومسرحه كله، بأبنائه وأخوته وبني أخيه ومعظم أهل بيته، مدفوعًا بالحماية بالبيت الحرام، والسكن في أمن مكة.. بعد أن اشتدت على عنقه الضغوط وزادت فوق كواهله دعوة وإلى المدينة (الوليد بن عُتبة) بطلب بيعته ليزيد...

وكان معاوية بن أبي سفيان قد توفِّيَ في رجب لعام ستين هجرية، وتولى يزيد مقاليد الحكم طبقًا للبيعة السابقة كولي عهد، فأرسل يزيد عاجلاً إلى واليه في المدينة برسائله.

«من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عُتبه.. أما بعد، فإن معاوية كان عبدًا من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكَّن له، فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محمودًا ومات برًا تقيًا.. أما بعد، فخذ حسين وعبد الله بن عمر وعب الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا، ليست فيه رخصة حتى يبايعوا..» وما إن وصلت الرسالة حتى ألح

الوليد ثقيلاً على الرجال مسرعًا في تنفيذ الرسالة والوصية، ومضبوطًا على تلقي الأوامر.

لكن الحسين رفض إعطاء البيعة، وما كان منه إلا انتظار يومين ثم انطلق إلى مكة..

لم يكن رفض الحسين لبيعة يزيد، طمعًا في حكم، أو رغبة في اعتلاء مقعد الخلافة.. أو إرثاءً تاريخيًا من العداء بين علي ومعاوية، ذلك الذي رُفعت فيه السيوف والسهام والرماح والمصاحف وخاضوا فيه صراعًا شديدًا، ومعارك شرسة وانقسامات وفتن وانهزامات وفرق دينية وسياسية.. واغتيال شائن كما لم يكن – أيضًا – استمرارًا لحلقة الحرب الباردة المريرة التي راح ضحيتها الحسن بن علي (شقيقه في الدنيا وحفادة الرسول، وسيادة شباب الجنة) مسمومًا بالعسل، وتحمل معاوية وِزْرَ دسِّه إلى فم الحسن!

لم يبايع الحسين يزيدًا خليفة للمسلمين.

ولكن بدايةً، هل بايعه قبلاً وليًا للعهد وخليفة لأبيه؟

السؤال يستدعي العودة شهورًا للوراء..

كان معاوية قد حضر على موكبه وفي حراسة، وبين دعائم دولته إلى المدينة المنورة، ومكث فيها أيامًا، يلتقي

برجالات المدينة الذي يعلم – علم يقين الأذكياء وإدراك رجال السلطة والنفوذ – أنهم لن يقبلوا ببيعة يزيد ما عاشوا.. وما عاش!

وهم الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.. وأخذهم بالتهديد والوعيد واللين والمهادنة، أجرى معهم مفاوضات مطوَّلة، كثر فيها الغمز والتنمُّر حتى أذعن هؤلاء إلى الأمر رضوخًا مؤقتًا، وحسبة معلومة، وتأجيلاً لفتق الجرح، وطلبًا لرحمة المولى عزَّ وجلَّ بعباده أن يقضي أمرًا ويبكِّر بإبراء الذمم وحقن الدماء.

.. «لقد علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم، يزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة..».

وأكمل معاوية خطبته في الرجال الأربعة وسط حشد من الناس.. «وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه...».

لقد قدم معاوية عرضه على قائمة المفاوضات، ذكيًا، كعادته، مكرسًا الأمر كله لصالح نفوذه ونفوذ مصالحه.

فقد أغرى كبار معارضي حكومته وخلافة ابنه بامتلاك الزمام الفعلي، العزل والإمارة والجباية والقسمة، على أن يكون يزيد صورة في إطار فقط! لكن الرجال الأربعة كانوا يدركون، ببصر وبصيرة – أنها حيلة معاوية السياسي، لا وعد معاوية صاحب الرحم والكرم، فأجابه الزبير بأن يصنع ما صنعه الرسول بترك الأمر دون خليفة، أو كما صنع أبو بكر بالعهد إلى رجل ليس من بني أبيه، أو ما فعل عمر في ترك الأمر شورى..

لكن معاوية غضب وأسفر عن نيته وطوى ستار السياسة ليظهر المسرح مكشوفاً..

«أعذر من أنذر، أني أخطب فيكم فيقوم القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإني قائم بمقاله، فأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمة في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقه السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه..

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهم سيف، وقال له «إن ذهب رجل منهم، يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما».

ثم خرج بهم إلى المسجد ورقى المنبر محمدًا الله واثني عليه وقال: هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، ولا يبرم أمر دونهم ولا يقضي إلا على مشورتهم وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله.. «فبايع الناس..! لكن التهديد بالقتل وسفك الدماء إذا رفعت المعارضة كلمة فوق شفتيها، لا يوحي بذكاء معاوية المعروف، حيث كان يهدد هنا بإراقة الدماء في المسجد، ودماء من؟

هؤلاء الأربعة برجالهم وأهليهم وذريتهم.

وأين؟ في مسجد رسول الله ومدينته.

وهذا فعل – على الرغم من ترديده على بعض الألسنة.. والمراجع التاريخية – لا يقدم عليه معاوية المسلم والحاكم وصاحب الرحم، والسياسي ورجل الدولة، حيث يعني ذلك ببساطة وإذا ما أعلن واحد منهم فقط تذمره فقتل، حربًا بدوية وصراعًا أهليًا وقضاءً مقضيًا، وهو ما كان سيزلزل أركان عرش ما زال معاوية يتحسس دعائمه ويؤسس أعمدته.

ومع ذلك.. أقبل وأقدم.. وفعلها.

إن رغبة المُلك وشهوة الحُكم أضلت.. ودوت.

الثابت هنا، أن معاوية كان يعلم عدم رضاء هؤلاء السادة عن يزيد بل وعن طريقة التوريث التي غرسها في المجتمع الإسلامي لأول مرة، الثابت أيضًا، أن السادة قد صمتوا واكتفى معاوية بصمتهم، وترك وصيته لتعالج – مع سلطة يزيد القادمة – أمور ظلت معلقة.

ليلة خروج الحسين من المدينة إلى مكة، كان يدرك تبعة ذلك ومشقة الأمر كله. ولكن كان يدرك أيضًا أنه بدينه ودنياه وأهله ومستقبله أمام هذا النهج الوراثي الملكي الجائر في الحكم واغتصاب السلطة وظلم الناس وقهر العباد وجبر الجمهور على منح بيعته بالدم (...)

وكان أيضًا يدرك سوء يزيد وضعفه وهزال خلقه وانحلال سياسته.. لا قياسًا إلى الحسين – كمنافس – فلا مكان للمقارنة بين ابن بنت رسول الله الحسين الزاهد، المقاتل السيد، الحليم، المؤمن، الحكيم، سيد شباب أهل الجنة، ذلك الذي دعا له النبي – صلى الله عليه وسلم – مع أخيه الحسين.

«اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحبب من يحبهما»[1]

---

[1] الترمزي... من حديث البراء – رضي الله عنه.

يزيد لا يصلح.. لا قياسًا للحسين، لكن قياسًا إلى الشخص الذي يمكن أن يكون حاكمًا لأمة المسلمين..

يزيد لا يصلح..

ولا يمكن أن يصلح من كان مثله غارقًا في الخمر شغوفًا بالملذات، بانصرافه عن المهام القتالية والاستشهاد وولعه باللهو والصيد وقلة عقله الديني، وهوان الفقه والإسلام عليه وعدم درايته وفهمه لشئون السياسة والحكم.

يزيد – باختصار – لم يكن الحاكم الذي يؤتمن على أمه، فضلاً عن صعوده لسرير العرش محفوفًا بالسيوف ومرفوعًا بالرماح ومدفوعًا بنفوذ أبيه وجلادي قصره.. وخبث أمرائه وطمع أوليائه.. رفض الحسين أن يكون هذا الأمير ملكًا على هذه الإمارة.

أن يكون هذا الرجل قوامًا على رجولة مسلمة ورجال أشداء، وصحابة ما زالت تعيش..

أبدًا..

ثم كان لا بد من موقف..

* * * *

أقبل

«بسم الله الرحمن الرحيم.. لحسين بن علي من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة..

سلام عليك.. فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.. أما بعد..

فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فيئها وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقَى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها.. فبُعدًا له كما بعدت ثمود.. إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جمعة.. ولا نخرج معه إلى عيد.. ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام عن شاء الله.. والسلام ورحمة الله عليك..».

ثلاث وخمسون صحيفة وخطابًا ورسالة موقعة باسم رجل أو اثنين أو ثلاثة، أرسلتها جموع الجماهير المنتظرة في الكوفة إلى الحسين في مكة، تشرح له حالها وتطالبه بالقدوم لتولي الإمامة وصعود العرش والسير في الأمة بسيرة جده وقوة أبيه وإخلاص لا ينتهي.

وكما وصفت له رسالة أُخرى الحال.

«أما بعد.. فقد اخضر الجناب[٢]، وأينعت الثمار، وطمت الحجام[٣]، فإذا شئت فأقدم، على جند لك مجند.. والسلام عليكم».

كانت الإرادة الشعبية تطالب بالحسين وتؤكد ثورتها – أو هكذا تدعي – على الحكومة القائمة والظلم المقيم..

وتحققت أول شروط الخلافة – كما يراها الحسين – في رسالة تحدد نظرته للحكم ورؤيته للسلطة ومفهومه لإرادة الناس وبيعة الجمهور..

---

(٢) أجناب الأرض.

(٣) ارتفع الكيل وفاض.

«..وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلكم[٤] أنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق.. وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدم علي به رسلكم وقرأت في كتبكم.. أقدم عليكم وشيكًا إن شاء الله، فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله.. والسلام».

الحسين يرى أن وصوله للحُكم لا يتم إلا بشروط واضحة ومحددة، الإجماع الجماهيري من الناس والعامة وذوي الحجة والعقل معًا، ثم إنَّ شروط الحاكم واضحة أيضًا..

العامل بالكتاب والآخذ بالقسط (العادل) والدائن بالحق.. وهذا ما لا يتوافر بالمرة في يزيد الذي صعد بالرمح وتربع بالظلم.. واستعد الحسين بإرسال مسلم بن عقيل (ابن

---

[٤] معظمكم.

عمه) إلى الكوفة لكي يستطلع الموقف ويجمع الرأي والمشورة ويعد العدة ويمهد الطريق لحضوره ورغم كل ما واجهه الحسين من تحذيرات وإنذارات متكررة لا تنقطع ولا يشك هو في صدقها وحرارتها وطهرها، وحرصها عليه وعلى حياته، حيث أكدت له أن الواقع ليس ممهدًا، وأن التربة ليست خصبة، وأن الكوفة ليست صادقة، والإمارة ليست صامتة، إلا أنه أصر على الخروج وآمن بالذهاب.

لماذا؟!

القلوب والسيوف!

لماذا؟

كان هذا السؤال يواجه الحسين كلما مر علـــى متــر مربع في الصحراء العربية الواسعة متجهًا للعراق..

لماذا؟

دخل عليه عمر بـــن عبـــد الـــرحمن بـــن الحـــارث المخزومي والحسين ما زال بعد في مكة.. وقال له: «إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق وإني مشفق عليـــك مـــن مشقة أنك تأتي بلدًا فيه عماله وأمراؤه. ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار (..) ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممـــن يقاتلـــك معه..».

استمع الحسين لنصيحة ابن عبد الرحمن وشكر عقلـــه وبيانه، لكنه خرج من مكة! ومضى إليه عبد الله بن عبـــاس وسأله:

«أتسير على قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم، فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليه وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليه قاهر لهم وعماله يغروك ويكذبوك ويخذلوك وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك؟».

فقال له الحسين: فإني أستخير الله وأنظر ما يكون..

ولكن خرج(..).

وعلى مبعدة أميال من مكة لقيه رجل عراقي قادم للحجج، فسأله الحسين عما وراءه.. فأخبره الرجل ملتاعًا.. «القلوب والسيوف مع بني أمية.. والقضاء بيد الله..» فأجابه الحسين: صدقت.

ولكنه مضى!!

وبينما هو في طريقه التقى بالفرزدق بن غالب – الشاعر العربي الشهير – توقف الفرزدق وسلم على الحسين وقال له:

أعطاك الله سؤالك وأملك فيما تحب.

فأجاب الحسين وسأله:

- بين لنا نبأ الناس خلفك.

قال الفرزدق والألم ينهشه:

- قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء.

فرد عليه الحسين:

- صدقت، لله الأمر والله يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا في شأن.. إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته.. ثم حرك الحسين راحلته وقال: السلام عليكم.

ثم افترقا:

ورغم إجابة الفرزدق الشافية التي تشبه سيف الكي فوق الجرح ليشفَى أو يلتئم.. ورغم نبرة الرجاء والدعاء في لغة الحسين إلا أنه استمر ماضيًا نحو العراق..

حتى لما بلغه النبأ.. لم يرجع.

ولكن أي نبأ؟!

كذبونا وغرُّونا
وخذلونا وقتلونا!

في خيمته محاصرًا بالأنباء القادمة، والريح المشتعلة في سعف النخيل المترامي، العشب المحفور في التراب الأصفر، السراب المعلن عن وجوده الأسطوري وارتواء العطشان المستحيل، استقبل الحسين بعض الوافدين من الكوفة.. ومرة أُخرى يسألهم:

- أخبروني خبر الناس وراءكم.

قال أحدهم:

- أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم[٥] يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم ألب[٦] واحدًا عليك، وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوي إليك وسيوفهم غدًا مشهورة عليك".

---

[٥] غرائر: جمع غرارة ومعناها الجوال.

[٦] ألب واحد: معناه مجتمعون عليه بالظلم والعداوة.

كان هذا نص الحوار في مشهد السيناريو الأسود الذي بدأت مشاهده عندما دخل مسلم بن عقيل رسول الحسين الكوفة قادمًا بالأمل في استنقاذ الناس من ضعفهم، واستخلاص العدل من أنياب طغاتهم، وفرح الناس به وهرعوا إليه، يلمسون أطراف ثوبه يعانقون بأناملهم كفًا لمست الحسين، وأخذ مسلم يتلقَّى البيعة تلو البيعة من وجوه أبشرت وقلوب أقبلت وعقول تأهلت وأجساد تأهبت، وسيوف أشرعت، وصفوف تماسكت، وأحصاهم مسلم فوجد بيعة القوم اثني عشر ألفًا من أهل الكوفة.

اثنا عشر ألفًا من أنصار الحسين..

بينما تسلل في الوقت نفسه عبيد الله بن زياد والي البصرة الذي أولاه يزيد ولاية الكوفة، بعد أن كاد يعزله عن الأولى لولا مشورة دست في أذنيه نصيحة أكدت له أن الذي يمكنه تصفية الكوفة دمويًا وسياسيًا هو عبيد الله بن زياد فقط..

هو.. لها..

وهي له.

طاغية لمدينة متمردة.

ومدينة متمردة القشرة لصاحب مدية تغوص تحت السطح وتفتك بغشاء الغرائز الهش! دخل عبيد الله إلى الكوفة، ملثمًا يسير بجوار الحائط، بينما يلقي عليه الناس تحيتهم حارة..

- أهلاً يابن بنت رسول الله.

ويهلل الصبية في أحضان أمهاتهم بعد أن قفزوا وصيد الباب وألقوا بحجارة اللعب واللهو.

- لقد جاء الحسين يا أمي..

وما لبثوا أن أدركوا.. إنما هو عبيد الله بن زياد وليس الحسين، فانتبهوا وتفرغت عقولهم للتخمين فيما سيحدث.

كانت الكوفة ملتهبة تمامًا، ومستعدة لإشعال فتيل الثورة حين دخل رجل من أهل حمص إلى المسجد، وطلب من أحد الشيوخ أن يأخذ بيده على رسول الحسين، ليعطي له البيعة وثلاثة آلاف درهم ليتقوى بها في معركته القادمة.

وفرح الشيخ وأخذه إلى مسلم بن عقيل، فأعطى البيعة والمال وانصرف مودعًا..

ولكن لما ابتعد عن الدار التي كان بها مسلم، توجه رأسًا إلى قصر الإمارة، وفي دقائق كان بين يدي عبيد الله بن زياد الوصف التفصيلي لمكان إقامة مسلم وأنصاره.

وعلم مسلم بالخبر، فخرج مسرعًا من دار هانئ بن عروة مقر الحصول على البيعة وانتقل إلى دار أُخرى، وما لبث شخص يدعي محمد بن الأشعث (كُتب علينا أن نلقى مثله بين قدمي ويدي كل سلطان)

قاد هذا الأشعث، تأمل وتتبع، عددًا من أنفار وحراس عبد الله وقدم إلى دار هانئ واستدعاه للأمير.

وهناك كشف عبيد الله الحيلة..

وأخرج عميله الذي بايع منذ قليل مسلمًا وأعطاه المال (الذي لا نستبعد أن يكون مميزًا بغلامٍ ما كعهد شرطة وقتنا الحالي) فهتف هانئ بمجرد رؤيته للعميل:

- أصلح الله الأمير.. والله ما دعوته إلى منزلي ولكنه جاء فطرح نفسه عليَّ.

صرخ فيه عبيد الله بن زياد وهو يعصف بالغضب ويدك الأرض بقدميه:

- ائتني به.

فاستعاد هانئ قوته وأدرك موقفه وثبت على رايته.

والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه.

وإذا كان لأحد أن ينشر صورة هانئ بعد هذه المواجهة، فلن يكون أبعد من صور الصفحات الأولى للصحف اليومية، وجه مهشم ودماء فوق اللحية، بشرة انتزعت، وعلامات واضحة لسياط الجلاد، فقد مارس عبيد الله مع هانئ صنوف العذاب التقليدية من التنكيل والتحريق والضرب، ثم أمر بسجنه وتسرب الخبر – كعادة كل الأخبار في قصور الإمارة الظالمة – على عشيرة هانئ بن عروة (بني مذحج) على أنه قتل، فقدموا في جمع عظيم واحتشدوا في مظاهرة واضحة حول القصر، فخرج عليهم محمد ابن الأشعث – مرة أُخرى – يخبرهم أن الرجل سليم معافَى وأن أحدًا لم يلمسه وهو حي يتفاوض مع الأمير ويطلب منهم الرحيل..

فرحلوا.. ونزل عبيد الله إلى المسجد فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشرطته وحشمه، فحمد الله واثني عليه (آه من مقدمات خطب الطغاة).

أما بعد.. أيها الناس فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا وتجنوا وتحرموا، إن أخاك من صدقك وقد أعذر من أنذر..

وما كاد يهبط من المنبر.. حتى كانت الصيحات قد ملأت المسجد فارتجت له فرائص الأمير، فقد كان الهتاف عاليًا مدويًا:

- جاء ابن عقيل.. جاء ابن عقيل..

فأسرع عبيد الله هاربًا إلى قصره.. وخلفه شرطته (..).

وكان مسلم بن عقيل قد نادى في أصحابه، أن يخرجوا للناس وقد امتلأت بهم الدور واحتشدت جموعهم بالأسطح وازدحمت صفوفهم في الشوارع ومن بين ثمانية عشر ألفًا من مبايعته، خرج مسلم بصيحته:

- يا منصور أمت..

وهتف بالنداء الآلاف:

- يا منصور أمت.

وسار أربعة آلاف جندي ليقودهم مسلم إلى مقعد الإمارة، فغلق عبيد الله الأبواب واجتمع القادة (ثلاثون شرطيًا وعشرون رجلاً من أغنياء ومليونيرات الناس!!) في الغرفة الواسعة المطلة على ساحة القصر وهدير الغضب يسطع في سماء الكوفة المظلمة(..).

أربعة آلاف خرجوا مع مسلم إلى القصر..

الطريق في سرعتهم واحتشادهم لا يستأهل أكثر من دقائق، وفي انتظامهم لا يستدعي أكثر من سويعات قليلة.

هذا الوقت كان كافيًا أن يبقى فقط مع مسلم ثلاثون جنديًا..

ثلاثون جنديًا..

٣٩٧٠ جنديًا انصرفوا في ساعات عن نصرة مسلم وباعوا بخوفهم وجزعهم وضعفهم الحسين إلى زياد بن مرجانة (..)

فقد لعبها ابن زياد لعبة كاملة الصحة والدهاء وهو في لحظة قاتلة، كاد فيها رأسه أن يعلق على أعلى خشبة في الكوفة.

واعتمد في هذا على أضلع الخيانة الأساسية (التي ما كان أي زعيم سياسي في القرن الخامس عشر الهجري يفعل غيرها، مع الاحتفاظ بمقام التطور العلمي فوق الرؤوس).

ماذا فعل ابن مرجانة؟

لم يكن معه إلا ثلاثون جنديًا أشبه بالحرس الجمهوري، ولكنه أرسلهم إلى بوابات المدينة ومداخلها يلتقون بالآلاف الوافدة للقتال مع مسلم، يدخلون إلى قائد كل فريق، ويصافحونه ويحيونه، ويرد بأحسن منها، ويطلبون منه أن يحفظ الدم ويتقي الله في أهله وعشيرته، ويأتي إلى ابن زياد فيفاوضه ويسمع منه وله، ولما يدخل القصر ويسقط في الشرك، يسجن فورًا، حدث هذا مع الأعلى بن يزيد وعمارة بن صحلب وغيرهما، فجلس القادة وانصرف العسكر وتردد الجمهور! ثم ما كان منه إلا أن يخطو الخطوة الثانية فأرسل أشراف القوم.

أصحاب المصلحة الحقيقية في بقاء يزيد بن معاوية خليفة وابن زياد وليًا حيث الثراء للأثرياء والسلطان للأشراف والعدل لهم وحدهم.. وليبقى الفقراء لبكاء الليل

وصدقات الأعياد وموائد الرحمن في رمضان، إنهم الأشراف الأثرياء أصحاب المصلحة في غياب العدل ورمزه.

قام هؤلاء الأشراف وعلى رأسهم محمد بن الأشعث – بالطبع – بأكمل ما يمكن أن تقوم به إذاعات العدو الموجهة وصُحفه المشتراة..

وبثت دعاياتهم في الآلاف..

أيها الناس الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشر ولا تعرِّضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهدًا: لئن أتممتم على حرية ولم تتصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريتكم العطاء ويفرق مقاتليكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البر بالسقيم والشاهد بالغائب حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جرت أيديهم..

هذا البيان – بحذافيره – تم صكه على مدى عشرات القرون الماضية لتثبيط الهمم وشراء الذمم والضغط فوق الضعف واللعب في أعماق الجرح ومغازلة ثم مضاجعة الغرائز.

الوعيد بالجيوش الخارجية القادمة تعصف وتقتل وتتصر.

التهديد بالحرمان من العطايا (..) وتشريد الأبناء في الجندية والمغازي.

الإنذار بأخذ البرئ بالسقيم والشاهد بالغائب دون تفرقة وبعقاب جماعي شامل.

انتظار الوبال القادم والمنتقم.

الخطة الإعلامية محكمة، والدعاية السوداء بلغت مداها إلى الحد المفجع الذي كانت فيه المرأة تأتي إلى أبنها أو أخيها فتقول انصرف الناس يكفونك[٧] ويجئ الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول غدًا يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر[٨] انصرف فيذهب معه..

فما زالوا يتفرقون ويتصدعون ويرحلون، حتى نظر مسلم حوله بعد صلاة المغرب فلم يجد إلا ثلاثين نفسًا!

---

[٧] إحنا مالنا : المرادف من العامية المصرية.

[٨] هوه إحنا قدهم ياعم.. مرادف آخر.. وقارن.

من يضبط مشاعر هذا الرجل في هذا الوقت العصيب واللحظة المميتة ٣٩٧٠ جنديًا يرحلون عن قائدهم فيظل وحيدًا في المسجد بلا سند وبلا درع.

لم يكن مسلم بن عقيل ساعتها يشعر بشيء لنفسه، لكن كان همه الأول الأوحد على الحسين القادم من جنة الحلم بالعدل إلى صحراء الواقع المظلم!

وخاصة أن مسلم خرج من باب المسجد في عشرة فقط من جنوده ثم صار وحيدًا في ظلام الكوفة..

وحيدًا (..).

وكان الحسين على وعد بالخيانة دائمًا تحول بينه – أشرف ما في عصره وعصرنا وجودًا ورمزًا – وبين تحقق الهدف وبلوغ المرام.. وكأن القدر يؤكد له – ولنا – أن أوضع ما في الإنسان يبرز يوم يكون أشرف ما فيه قد أسر داخل المال وسجن في قلب الخوف واعتقل في جب المطامع (..).

فقد خرج مسلم من المسجد وحيدًا، واستند بعد تعب ومشقة وعطش وجوع على سور قديم لمنزل أكثر قدمًا، فخرجت سيدة من الدار سألته فسألها الماء.. فأسقته وأغلقت

بابها دونه، ولكنها لما عادت وفتحت بابها مرة أُخرى وجدته، فنهرته، فعاتبها وأخبرها أنه مسلم بن عقيل رسول الحسين وصاحب بيعته والمخدوع بجموع الآلاف والمظلوم بالثقة في الناس.

- كذبني هؤلاء القوم وأغروني.

فأدخلته بيتًا تملكه إلى جانب دارها، ولكن ابنها حضر بعد لحظات فرآها تكثر الدخول والخروج من الدار للبيت المجاور، فاستجوبها وألحَّ عليها فأخبرته طالبة منه حفظ السر وصون الإيمان (..) وبينما عبيد الله بن زياد يستوثق من انصراف الآلاف وعتق رأسه من موت محقق وماله من مصادرة أكيدة وسلطانه من إزاحة مؤكدة، جاء محمد بن الأشعث يخبره أن ابن السيدة تلك أفشى لابنه السر لعله يذكره عند السلطان وأخبره بوجود مسلم في الدار..

فأرسل عبيد الله بسبعين رجلاً حتى أتوا الدار، فلما سمع عقيل حوافر الخيل وأصوات الرجال، عرف أن غدرًا – مجددًا – قد أحيق به وأن حصارًا مضروبًا حول داره فخرج إليه مستشهدًا بسيفه وشد عليهم ضربهم حتى أخرجهم منها مرتين بينما سالت الدماء على شفتيه وغطت لحيته. فلما

رأوا قوته وبسالته، ألقوا عليه الحجارة وأشعلوا النار في القصب ورموه به.. فخرج عليهم الرجل بسيفه يقاتلهم في السكك والحواري حتى أقبل عليه محمد بن الأشعث (..) صارخًا:

- يا فتى لك الأمان لا تقتل نفسك.. إنك لا تكذب ولا تخدع ولا تفر إن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك..

وكان مسلم قد بلغ من الخروج بالسيوف والرماح والإجهاد من العصف بالحجارة والنيران والعتمة، ومن الدماء التي كست وجهه، ما دفعه إلى الارتكان لحائط والهمس للأشعث.

- آمن أنا.

قال الأشعث.

- نعم.

وأكد القوم: نعم.

فصدقهم بحسن نيِّةِ المثاليين ونقاء الأتقياء..

فاقتربوا منه واجتمعوا حوله، انتزعوا سيفه من يده..

فدمعت عيناه وهمس:

- هذا أول الغدر.

وبكى حرًا وحارًا..

فقال له أحدهم:

- إن من يطلب مثل الذي تطلب، إذا نزل مثل الذي نزل بك.. لم يبك.

فأجابه عقيل:

- إني والله ما لنفسي أبكي ولا لها من القتل أرثي ولكن أبكي الحسين وآل الحسين.

ومن أول الغدر إلى آخره..

تسير الحوادث وتمر الأحداث..

فيدخل مسلم بن عقيل مكبلاً بأغلاله إلى قصر ابن زياد ويجد عنده عمر بن سعد بن أبي وقاص (قائد جيش زياد وقاتل الحسين) فيطلب منه أن يأتمنه الوصية الأخيرة.. فيرفض عمر في نذالة غريبة الاستجابة حتى يأذن له الأمير:

- لا تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمك (..)

ويستجيب عمر.

فيطلب منه مسلم أن يسدد دينًا عليه في الكوفة (سبعمائة درهم) وأن يواري جُثته بعد الممات وأن يبعث للحسين أن يرجع (..)

فيخون عمر بن سعد ويذيع وصيته كاملة على زياد.. ولا ينفذ منها شيئًا! ويثور زياد على مسلم:

- يا ابن عقيل أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتتهم وتفرق كلمتهم وتحمل بعضهم على بعض، والله إن الله ليعلم أنك غير صادق وأنك قلت بغير علم وإني لست كما ذكرت.

واتهمه مسلم بوضوح كامل. إنه يلغ في دماء المسلمين ولغًا فيقتل النفس التي حرم الله قتلها، ويقتل النفس بغير النفس ويسفك الدم الحرام ويقتل على الغضب والعداوة وعلى سوء الظن وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئًا (..)

فانتصب زياد حاكمًا ظالمًا وواليًا جائرًا وديكتاتورًا بشعًا متكررًا:

- اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه، ثم اتبعوا جسده برأسه وجروا مسلم إلى السطح وهو يكبر ويستغفر ويسبح ويُصلِّي على ملائكة الله ورسوله،

وقد أذاع قاتله أن آخر كلمات قالها مسلم بن عقيل قبل موته:

- اللهم احكم بيننا وبين قوم كذبونا وغرُّونا وخذلونا وقتلونا.. ثم ضربت عنقه..

وألقى بجسده من فوق القصر..

وبعد لحظات من الصمت المفزع.. ألقوا برأسه فـــوق بلاط القصر!!

* * * *

لا.....

- يا أبتي.. لا أراك الله سوءًا.. ألسنا على حق؟

قالها علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، اسمًا طويلاً متصلاً بجدود عظماء وآباء رجال، معطرًا ببيت النبوة، فواحًا بنضرة الشباب ووضوء التقوى وصلاة المناضلين..

قالها علي بن الحسين، على رمال ساخنة وبين أحصنة أعياها السفر وخيام أضناها طول الامتداد والطّي (..)

قالها أمام والده رضي الله عنه، متشربًا نور وجهه، متعطشًا لسناء حديثه، مؤمنًا بصدقه، مكافحًا لهدفه، مناضلاً لربه، أشرق وجه الحسين وهو يحيط ابنه بنظرات الإكبار والحب، واثقًا من نبله وعظمة سلالته:

- بلى والذي إليه مرجع العباد.

فأجاب علي متدفقًا:

- إذن لا نبالي، ونموت محقين.

ربت الحسين على كتفه، ولمس شعر رأسه، وضمه إلى صدره:

- جزاك الله من ولد خير ما جزى عن والده.

سؤال لا يبحث عن إجابة:

- ألسنا على حق؟

إجابة لا تنتظر سؤالاً.

والذي إليه مرجع العباد..

رغم كل التحذيرات فإن الحسين أصدر على المضي قدمًا في اتجاه الكوفة، اتجاه قدري حتمي وكأنه يصير - ويسير - على ما لا بد عنه ولا مفر منه.

رغم وصول النبأ المروع بقتل مسلم بن عقيل، ابن عمه ورسوله ورافع رايته، وشعاره وممثله السياسي والشخصي وسفيره ووزيره، إلا أنه لم يعدل عن قراراه ولم ينثن له عزم أو يتراجع له رأي.

هنا يسطع دور الشهداء والعظماء لتحويل مقبض باب التاريخ في اتجاه الخروج أو الدخول.. وكما وقف نبينا

العظيم مهاجرًا من مكة، واقفًا على حدودها – التي باتت غير آمنة – دامعًا بدموع شريفة عظيمة.

والله إنك لأحب بلاد الله إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت.. وقف أيضًا الحسين بن علي في راحلته وبين أهله وفي خفاء الهجرة الأولى أيضًا مخاطبًا هذه البيوت وتلك الشخوص وهذا الفضاء وهاتيك الحدود والجبال وذكريات الأمس:

- والله لأن أُقتل خارجًا منها بشبر أحب إليَّ من أن أقتل داخلاً منها بشبر.. وأيم الله لو كنت في حجر هامة من الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم.

كان يعلم سلفًا أنه حتمًا مقتول وأن سيَّاف الظلم والجور والخلافة المغتصبة – لا منه، ولكن من الناس والمسلمين – لن تتركه لحاله.

كان يدرك ببصيرة – نراها الآن نحن بقدراتنا المحدودة بعد مئات من السنين بينما كانت جد شاقة وصعبة ومذهلة لمعاصريه – أن يزيد لن يرضى منه بغير البيعة.

وأن أمير المدينة لن يدعه يفلت دون قولها.

وأن أمير مكة لن يحفظ للإسلام دينًا ولا للنبي كرامة دون أن يتمكن من الحسين فيستنطقه بالبيعة.

وكان من الممكن أن يتركوا الرجل وشأنه، حتى وإن لم يبايع.. ويكفي يزيد الملايين ٩٩,٩% من أصوات أمته – من أقصاها إلى أدناها، أن ترفع رأسها بالبيعة – خوفًا أو طمعًا لا يهم يزيد ولا زبانيته – لكنهم أصروا أن ينتزعوا من الحسين آخر قطرة في عرق الأمة الإسلامية.

لابد أن يبايع..

فبيعته تعني منح يزيد شرعية البقاء وتعني حصول سرير العرش على صك الشرعية، تعني بالضبط أن يصافح القاضي يد القاتل في قفص الاتهام، ولا مانع من أن يحتضنه ويقبله، ويقول له بصوت جهوري مطمئن كعهد القضاة:

- أنت عظيم أيها القاتل وأنا معك بكل قلبي.
- كان لص العرش لا يريد سوى هذه، كلمة تمضي من شفتي الحسين – التي قبلهما النبي العظيم صلى الله عليه وسلم – ثم يمضي..

ليس فقط آمنًا مطمئنًا ولكن غارقًا أيضًا في العطايا والأموال والهدايا والرواتب.

فقط قلها يا حسين بن علي.

وفقط لم يكن الحسين ليسمح لنفسه الثائرة التقية الورعة المؤمنة أن تقولها.. لا يمكن له أن يمنح يزيد – وما به من نقص وعلة وما بعرشه من اغتصاب الحقوق وانتزاع الولاء وشراء الذمم والضمائر وظلم العباد والجور على الدنيا والدين معًا – لا يمكن أن يمنحه شرف الموافقة..

لأن الحسين هنا، ليس الحسين فقط، بل هو رمز العدل وبقية النبوة وطليعة الآخرة وحكمة الجنة.. فالأمر إذن ليزداد صعوبة على يزيد والحسين.

كلاهما لا يستطيعان الوقوف أمام التاريخ والطبيعة الإنسانية..

يزيد سلطان جائر يبحث عن شرعية البقاء وصك الاستمرار والحسين إمام عادل وفقيه مسلم وفرع نبوي ورمز آخروي يبحث عن العدل، لا شيء سواه.. ولا سوء معه (..)

الحسين قبة الميزان التي أراد لها يزيد أن تسقط، فأبتْ.. فانتهى الأمر على المحطة الأخيرة إذن يا حسين!

القتل.

الخلاص منه شخصًا وعدلاً ورمزًا وجماهيريًا.

لذا قالها الحسين عالمًا عادلاً لمن سأله لما خرج من مكة قبل الحج بيومين.. لماذا العجلة؟

أجابه (تأمل):

- لو لم أعجل لأُخذت!

في هذا السياق يمكن أن نفهم مقولة الحسين..

- إني رأيت رؤيا فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأمرت فيها بأمر، أنا ماضٍ له، عليَّ كان.. أو.. لِي، ما حدثت أحدًا بها وما أنا محدث حتى ألقَى ربِّي.

من يرفضون الحلول الغيبية هنا.. والارتكاز على لامرئيات تدفع لتحركات على سطح الواقع.. عليهم أن يعوا – مع تقديرنا – أن هذا الرجل هو حفيد النبي – صلى الله عليه وسلم – وأنه سيد شباب الجنة.. من هنا يلغى التحفظ تمامًا وتبقى للرؤيا دلالتها العظمى الروحانية والصوفية التي تضيف للواقع بعدًا مهمًا وهمًا مؤكدًا..

لم يكن الحسين يبحث عن نصر عسكري لكي يخاف قلة عدد وعدة جيش وضعف حجمه وقلة ذخيرته أمام جيوش جرَّارة وفرسان وسيوف ورماح.. وحجارة، ولم يكن الحسين

يبحث عن خلافة تملأ الأرض والسماء وتهز عروشًا وتفتح أممًا وبلدانًا.. لكي يرجع إلى حيث كان، عندما وصلته أنباء انفضاض الجموع وتخاذل المبايعين وتراجع المؤيدين.. فيأخذها من "أقصرها" ويرجع!

ولم يكن الحسين يبحث عن حل سياسي توفيقي تنتهي به المفاوضات إلى أقصى المكاسب النابعة من أقل الخسائر.. وإلاَّ كان رضيَ بأن يدخل الكوفة ويجلس أمام عبيد الله بن زياد، ويصافحه ويمنحه شرف المكوث أيامًا في قصره ثم يرحل إلى العاصمة فيما بعد يحتضنه يزيد، ويزيد من كرمه وسخائه (..)

لم يكن الحسين يبحث عن هذا كله وإلاَّ فعل ما يقتضيه ذلك، لكنه كان يبحث عن شيء واحد الشهادة..

لماذا؟

لم يبحث الحسين عن شهادة دخول للجنة أو لتأكيد دخولها..

لقد كانت شهادة علينا..

شهادة للأمة كلها.. وللتاريخ.. وللمقاومين بعد مئات السنين لمواجهة أي يزيد يجيء بمقاومة الحسين الوحيدة (..)

حجة علينا..

ألا يقف أي واحد منا في أي مقام كنا.. ويسأل، ماذا أفعل؟

والقوم كلهم ظلم والعصر كله ظلام والرفاق انفضوا والأنصار رحلوا!!

السؤال لا محل له من الإعراب؛ لأن الحسين أعطى المثل التاريخي والقدوة الخالدة والشهادة العالية..

المقاومة حتى آخر قطرة دم.

الوقوف أمام الجور والظلم حتى النفس الأخير (..)

وهي شهادة على وضد الزمن!

شهادة يوصم بها يزيد وبنوا أمية، وزمن عبيد الله بن زياد وشمر بن الجوشن وعمر بن أبي وقاص، أنهم قتلوا الحسين..

وتخلصوا من العدل والعدالة..

شهادة تقوض أركان عرشهم وتدمر قواعد ملكهم وتزلزل بنيان مستقبلهم.

إن دماءه المُراقة ستتحول إلى فيروس النهاية في جسد هذه الدولة، وإن مقتله سيمثل طعنه في الغلاف الجوي الذي يحيط برئة الظالمين، ونظريات السلطة التي يقفون عندها وعليها!

شهادة الحسين بن علي..

ورقة إثبات مختومة بالدم على تلوث العصر وعظمة المقاومة والارتكاز على الضمير الحي ضد الضمير المشتري، والاعتماد على قوة القلب ضد رخاوة العقل المحكوم بالواقع والضغوط والاقتصاد والمال والسيف والسلطان.

أخشى أن تسقط في شرك البلاغة والتي كان يمكن أن يسقط فيها كثيرون، ويكتفون بها درعًا لمقاومة يزيد وزمنه وزياد ودولته لولا أن خرج الحسين عن كل حدود البلاغة والإنشاء ومقالات صحائف معارضة نارية، وليصفعن بالناصية.

ويعطي شهادة للجميع وعلى الجميع (..).

«ولم يعتَدْ من كان الحق نيته والتقوى سريرته»!

لذا عندما خفق الحسين على فرسه خفقه برأسه ثم انتبه وهو يقول:

«إنّا لله وإنّا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين».

وأخذ يكررها ثلاثـــاً حتى أقبل عليه ابنه علي قائلاً:

- يا أبتِ جعلت فداك.. ممَّ حمدت الله واسترجعت!

أجابه العزيز الغالي:

- يا بني إني خفقت برأسي خفقةً فعنَّ لي فارس على فرس.. فقال القوم يسيرون والمنايا تسرى إليهم..

فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا..

فهمس علي بسؤاله غير المستفهم:

- يا أبتِ لا أراك الله سوءًا.. ألسنا على حق؟ أجابه الحسين جوابًا معلومًا للسائل:

- بلى والذي إليه مرجع العباد.

فأضاف علي بن الحسين:

- إذن لا نبالي، ونموت محقين.

إذن لا نبالي.

* * * *

اقتلوه.........

«أما بعد..

فإني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه أو لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء.. ولا لتقعد له عندي شافعًا..

انظر..

فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فأبعث بهم إليَّ سُلمًا، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قُتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عاقٌ شاق، قاطع ظلوم.. وليس "دهري" في هذا أن يضر بعد الموت شيئًا، ولكن على قولٍ لو قد قلته فعلت هذا به (..) وإن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع وإن أبيت فاعتزل وعملنا وجندنا.. وخل بين شمر بن الجوشن وبين العسكر فإذا قد أمرناه بأمرنا (..).

والسلام..».

هذا هو نص الخطاب الرسمي الذي أرسله عبيد الله بن زياد والي الكوفة يحمل قراراته الحربية والعسكرية إلى قائد جيشه في كربلاء عمر بن سعد بن أبي وقاص.

واضحةٌ إذن الأوامر..

وتعني ببساطة – كل هذه الرسالة البشعة – أنْ اقتلوا الحسين!

إما أن يستسلم أو أن يقتل ويمثل بأصحابه ويطأ الخيل صدره وظهره لا شيء يضره لا سمح الله بعد الموت، ولكن لأن صاحبهم عبد الله بن زياد قد ندر ذلك حال قتل الحسين..

وعصيان الأمر العسكري يعني أيضًا، أن يرفع عمر عن «كتفيه»

شارة القيادة ويرحل تاركًا العمل، الميداني، لشمر بن ذي الجوشن فإنا قد أمرناه بأمر..».

اقتلوه...

هذه هي كلمة السر والعلن معًا..

والغريب أن روايات تاريخية ظهرت على سطح المراجع والأمهات الكبرى في كتب التاريخ، تزعم أن

الحسين قد عرض على جيش عمر بن سعد، في أثناء اللقاءات الليلية بين المعسكرين – على الحدود – أحد ثلاثة اختيارات يرى فيها عمر أمرًا لينفذه الحسين دون قتال أو إراقة دماء.

زعموا قول الحسين..

اختاروا منى خصالاً ثلاثًا، إما أن أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى ما بيني وبين رأيه، وإما أن تسيروني إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلاً من أهله لي ما لهم وعليّ ما عليهم (..)

وإن هذه الاختيارات نقلت حرفيًا إلى عبيد الله بن زياد، ولكنه رفضها قاطعًا بضرورة مبايعة الحسين ليزيد وحضوره حتى قصر الإمارة في الكوفة.. وأرسل نص الخطاب القرار الذي عرضنا له.

وهناك ممن صاحبوا الحسين من مكة حتى مقتله نفوا تلك الرواية تمامًا، مثل عقبة ابن سمعان الذي قال: «.. ولم أفارقه حتى قتل، وليس من مخاطبة الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم

قتله إلا وسمعتها، ألا والله ما أعطاها ما يتذاكر الناس وما يزعمون، من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين ولكنه قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى أنظر ما يصير من أمر الناس...».

فور ما يموت البطل – الرمز، فإنه سرعان ما تخرج أحاديث الإفك لتنسب له تنازلات وسقطات تشوِّه من الصورة النقية، وتضعف من قوة الإيمان، تشكك في المواقف القاطعة، لمجرد أن تشوش الفكرة لدى الناس وتذهب بهم مأخذ الرد والإيجاب والنفي والجدل.

والمنطق يرفض الرواية التي زعمت عرض الحسين على أعدائه خصالاً ثلاثًا جملة وتفصيلاً..

لنفى رفاق، الجهاد الحسيني – هذه الواقعة برمتها لأن الحسين عندما وقف لحظة القتال في الناس وقال لهم:

- ذروني أرجع إلى مأمني في الأرض.

فقال جيش عمر بن سعد:

- وما يمنعك أن تنزل على حكم بني عمك؟

أجاب الحسين قائلاً:

معاذ الله.. ثم تلا قوله تعالى ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [٩]

إذن المسألة واضحة تمامًا.. لقد رفض الحسين أية محاولة للصلح تنتهي بمبايعة يزيد والاستسلام لطغيان دولته.. وتكبرها واستكبارها على المستضعفين في الأرض، ثم إنَّ الحسين ما كان ينتظر لتقديم هذا العرض، الذي زعموه، حتى يقف قبالة أربعة آلاف مقاتل وحده كان من الممكن أن يرسل به إلى زياد أو يزيد، رسولاً على فرس قبل أن يحتدم الصراع ويظهر القتال خاصة وقد جاءته أنباء مقتل مسلم بن عقيل وانفضاض المبايعين منذ فترة تسمح له بإنهاء الأمر جملة وتفصيلاً وبدون بقعة دم واحدة!

..أيضًا لو سرنا – جدلاً – مع هذه الرواية بتعديلاتها يمكن أن نتبين وفقًا للخطوات السابقة على لقاء الجيشين، أن الحسين أراد فقط أن يعطي لزياد وجيشه فرصة أخيرة للتراجع عن عبوديتهم ليزيد، مقابل إيمانهم بربهم الجليل.

---

(٩) سورة غافر ، الآية ٢٧

كان يخاطب ولآخر لحظة وبروح السماح النبوي اللا محدود، آخر قطرة دم نظيفة في قلوب هؤلاء.. لشيئين:

- إن يؤكد لمن معهم – ومعه – إن هؤلاء اختاروا الاستمرار بمحضِ إرادتهم وبعد أن قدم لهم كل نصيحة..
- إنه أراد أن يقدم لرفاقه وصحبته دليلاً عمليًا على أن الذي ينظرهم، حتمًا – هو الموت والشهادة، فعليهم أن يستعدوا لمواجهته، أو الانصراف سالمين قبل رفع السيوف.

ثم حتى مع الرواية المزعومة، فإن معنى الكلام، باطنًا وظاهرًا – لا يدل على موافقة الحسين على بيعة يزيد!

هذا.. وأن الحسين – بعد كل ما ذكرناه – كان يدرك أنها الشهادة ومن ثَمَّ لا يمكن أن يُنقِص نقاءَها بتنازلات هو يعلم مسبقًا أنها لن تجدي نفعًا ولا فائدة.

إذن تجاوز هذه الرواية يصبح طبيعيًا ومنطقيًا، دون أن يمسك المتربصون بنا، وخاصة أنها محض افتراء لتبرير استسلام وسلام الذين وضعوا يدهم مع يزيد!

* * * *

لا بقاء لنا بعدك !

الليل مطلوق العنان في هذه الصحراء التي لم يظهر فيها قمر، ولن يظهر فيها قمر كذلك الذي سطع قبل شهادة الحسين.. وربما أرخ أبناء كربلاء الذين عاشوا الحد الفاصل بين رمل الصحراء قبل عناق طهر دماء الحسين.. وبعدها ربما صاروا يؤرخون أيضًا لاختلاف القمرين في المرحلتين!

جلس الحسين مع صحبه وأهله.. رجال سيماهم على وجوههم، اطمئنان الشهادة ورزق الفوز، وعشق النبوة، وولاء الرجال وعناق القلوب، وعناد الحق، وإصرار أُولي القوة وأحلام الجنة، وانتظار الموت، والحنين للقاء محمد وصحبه، ومصافحة حور الجنة.

الحسين قطرات من النور المصفَّى تحيط بجبهته وترسم عطرها فوق شفتيه وعلى لحيته، بين لحظة وأُخرى، يرقب ابنه الصغير العليل الذي أصابته حمى أرقدته في حضن عمته السيدة زينب تلك التي جزعت ووثبت حزنًا

وألمًا عندما سمعته يهمس بشعر ينعي فيه نفسه، وثبت تجـر ثوبها، وتحسر غطاء رأسها وتبكي دمًا من قلبها المنزوف:

- واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت فاطمة وعلى أبي وحسن أخي، يا خليفة الماضي وثمالة الباقي.

سمعها الحسين فارتج، واقترب منها وعانقها مبللاً بدموع أخ كريم وشهيد مقاتل، قد علته غُصة في صوته، كما هوت رأسها على صدره.

- بأبي أنت وأخي يا أبا عبد الله.. نفسي فداك.

وأُغشيَ على السيدة الجليلة التي وثقت أن الموت قادم وأن الحسين أخاها وسيد شباب الجنة ذاهب له.. تاركًا لوعة نفسها وحرقة قلبها عليه واغتصاب الظالمين لحقوق الناس والشهداء.

صبَّ الحسين على وجهها الماء وقال لها:

- يا أختاه. اتقي الله وتعزِّي بعزاء الله. واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لا يموتون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله، خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده،

أبي خير منِّي، وأخي خير منِّي، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة.

كان يستعيد ذات المشهد، ويروي تفاصيله لعينيه، وهو ينظر ما لصحبه وأنصاره المقاتلين الشهداء.. لما قال:

- إني لا أعلم أصحابًا أولى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعًا خيرًا، ألا وأني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدًا، ألا وإني قد أذنت فانطلقوا جميعًا في حل ليس عليكم مني زمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بسيط الأرض في سواد الليل إلى بلادكم ومدائنكم، فإن القوم إنما يريدونني(..)

وأَبَى الشهداء إلا الشهادة.

وتجمعوا حول الحسين، وتحلقوا حول شهيدهم الأعظم..

- لا بقاء لنا بعدك.. لا أرانا الله ذلك أبدًا:

فالتفت الحسين إلى أخوة مسلم بن عقيل:

- يا بنى عقيل.. حسبكم من القتل بمسلم.. اذهبوا قد أذنت لكم. قالوا:

- فما يقول الناس، يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، لم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف رغبة في الحياة الدنيا..

لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك.

وانطلق الرفاق:

- والله لا نخليك حتى يعلم الله، أنَّا قد حفظنا غيبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيك، والله لو علمت أني أُقتل دونك ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك لأحببت ذلك.. وإنما هي قتلة واحدة..

وكان ليل كربلاء يشهد:

- لا أرانا الله يوم فقدك ولا حاجة لنا في الحياة بعدك. والله لا نفارقك وأنفسنا الفداء لك، نقيك

بنحورنا وجباهنا وأيدينا وأبداننا، فإذا نحن قتلنا وفينا وقضينا ما علينا..

وبات الشهداء (٧٢ رجلاً) ليلهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون وخيول حرس عدوهم تدور من ورائهم وصوت الحسين قويًا نابعًا من الجنة وخندق الشهادة المنير يتلو قرآن ربه:

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ.مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [١٠]

صوت الحسين فوق الحوافر واصطكاك السيوف وارتفاع الرماح وهمهمة الجند وسكون الرياح، وعواء الذئاب ورقرقة الماء في فم الظالمين..

صوت الحسين يملأ الليل..

وينتظر إشراق النهار الطالع!

* * * *

---

[١٠] سورة آل عمران الآية ١٧٨، ١٧٩

أوصيك بهذا!

خرج الضوء الأول من النهار..

الحسين فوق حصانه، نظر للكون نظرة مودع والتفت للقوم التفاتة القادة لحظة توقف التاريخ على التفاتهم.

ورفع يديه بالدعاء:

- اللهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو.. أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة مني إليك فيمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت وليٌّ كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة. ثم أمر صحبه باضطرام النار في الحطب والخشب والقصب من ورائهم حتى لا يأتي المهاجمون من خلف..

واشتعلت النار.

ومن كل المداخل إلى قلوب فيها بصيص من أمل، دخل كلام الحسين خطيبًا في الفريق الظالم، يتجول بفرسه، يدور برأسه، يصافح العيون والقلوب والضمائر، يمتلئ صوته دفئًا عميقًا، مستقيمًا نافذًا، يرفع يده للسماء، يشير إلى صدره، يربت على فرسه:

- أيها الناس.. اسمعوا منِّي نصيحة أقولها لكم.. أيها الناس إن قبلتم منِّي وانصفتموني كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم على سبيل وإن لم تقبلوا منِّي **﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾** [١١]

هل يصلح لكم قتال مثلي؟.. وأنا ابن بنت نبيكم وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري! وعلي أبي وجعفر ذو الجناحين عمي، وحمزة سيد الشهداء عم أبي، قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولأخي:

«هذا سيد شباب أهل الجنة»

أيها الناس، ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض..

---

[١١] سورة يونس ، آية ٧١

فقالوا (أخيرا)..

- وما يمنعك أن تنزل علَى حُكم بني عمك؟

فقال.. معاذ الله.. ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [١٢]

.. أخبروني..

اتقتلوني بقتيل لكم قتلته، أو مال لكم أكلته أو بقصاص من جراحه.

فأخذوا لا يكلمونه..

فنادى:

- يا شبث بن ربعي، يا حجار بن أبحر.. يا ...

ألم تكتبوا إليَّ أنه قد أينعت الثمار واخضرَّ الجناب، فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة (..)

كل المداخل لم تفلح..

كلها أدت إلى الحقيقة المؤكدة، أن الصراع لم يعد ضد الحسين ولكنه بات ضد أنفسهم.. ضد صوت العقل وهمس

---

[١٢] سورة غافر، آية ٢٧

الضمير الذي كان ولا بـد أن يحطمـوه ويقتلـوه ويمثلـوا بجسده.. الضمير.. أقصد الحسين!

وزحف عمر بن سعد، قائـد الجـيش الـذي أعمتـه طموحاته الملكية وعشقه لولاية الرأي فـي دولـة الفـرس، فوضع سهمه في كبد قوسه.. ثم رمى وقال:

- اشهدوا أني أول من رمَى...

هذا ابن سعد بن أبي وقاص.. أول مـن رمـى فـي الإسلام بسهم ضد عدو هذا هو.. تخيلوا.

وبدأت المعركة..

وإذا برجل يقال له عبد الله بن حوزة.. يقـف قبالـة الحسين مناديًا:

- يا حسين.. أبشر بالنار.

أطرق الحسين مجيبًا:

- كلاَّ.. إني أقدم على رب رحيم وشفيع مُطاع..

ثم التفت من هذا؟

قال له أصحابه:

- هذا ابن حوزة.

قال:

- رب حزه إلى النار.

فاشتعل حوزة غضبًا، وهم بإقحام فرسه بينه وبين النهر، فوقع منه وتعلقت رجله بركاب الفرس، ووقع رأسه في الأرض ونفر الفرس فأخذ رأسه يصطدم بكل حجر في الأرض وكل شجرة حتى مات..

ولم تكن حتى المعجزات قادرة على تغيير دفة المعركة – الصراع!

خرج برير رفيق الحسين وحافظ القرآن والذي كان يحفظه لعدد من رجال جيش القتلة، وبارز يزيد بن معقل، انطلقا بفرسيهما للمبارزة.. فخرجت ضربتان في نفس اللحظة من كليهما، أما برير فقد أصابته ضربة خفيفة لم تضره.. أما ضربته بسيفه البتار فقد اخترقت رأس يزيد، ضربة أفقدته التوازن مع الحياة..

فسقط من الفرس صريعًا هالكًا..

فاندفع آخر من رجال الجيش الظالم، وسقط بجسده فوق برير الذي عاركه مقاتلاً مستبسلاً، وبينما كان على وشك الانتصار الثاني إذا بكعب بن الأزدي يغرس رمحًا في

ظهره، غدرًا وخيانة وعجزًا، فقاتل برير والرمح مغـــروس في ظهره، بيديه وأصابعه، لكن كعب الأزدي عاجله بطعنـــة قاتلة.. فما كان من المقاتل الشرس صاحب الحســـين إلا أن نهض على ركبتيه ونفض التراب عن جسده وهو يقول:

- أنعمت عليَّ يا أخا الأزدي، نعمة لن أنساها أبدًا.

نظر إليه والتفت ناحية الحسين مبتسمًا مودعًا..

ثم ذهب لربه.

حينما انطلق الحر بن يزيد في وجه الحصين بن تمـــيم أحد قيادات الجيش الظالم وتبارزًا، وكانت نفس الحر علـــى كفه، لذلك عندما رفع سيفه وهوى به على الأخير.. مات من فوره..

هنا.. صاح أحد رجال جيش القتلة بالناس.

- يا حمقى.. أتدرون من تقاتلون. قومًا مستميتين لا يبرُزَنَّ لهم منكم أحد، فإنهم قليل وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم.

فقال عمر بن سعد:

- صدقت الرأي.. ما رأيت..

ثم أرسل لرجاله.. ألا يبارز رجل منكم رجلاً منهم..

ثم أصدر قراره العسكري الثاني، بمد فرسان جيشه بخمسمائة من الرماة، رشقوا خيل اثنين وثلاثين فارسًا من رجال الحسين بالنبل فلم تلبث أن عقرت جمعيها وصار جميع أصحاب الحسين فُرادَى راجلين فوق الأرض البطحاء التي رويت بدمائهم الزكية.

وعلى حين كانت الأحصنة تهدر بالتراب والغضب، تحمل الألوف ضد أفراد جيش الحسين محدودة العدد والعتاد، والمترجلة على التراب..

دنا حبيب بن مظاهر من الذي سبقه في الشهادة مسلم بن عوسجة (قائد ميمنة الحسين) وهمس في أذنه وهو يقف على باب الآخرة، يلفظ أنفاسه الأخيرة.. وهمس في أذنه:

- عز عليَّ مصرعك يا مسلم أبشر بالجنة.

فقال مسلم قولاً خافتًا قادمًا من الآخرة:

- بشَّرك الله بالخير.

فقال حبيب:

- لولا أنني أعلم أنني في أثرك لألحق بك، لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك حتى أحفظك في كل ذلك، بما أنت أهل له في القرابة والدين..

قال مسلم:

- بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله.

وأشار بيده التي دنت من الموت إلى الحسين (..)

وهمس همسته الأخيرة:

- أوصيك أن تموت دونه.

فبكى حبيب واحتضن جسد مسلم المسجَّى في دمائه وهتف:

- أفعل ورب الكعبة.

هبَّ شمر بن ذي الجوشن نحو فسطاط الحسين، بينما اشتعلت النيران في بيوت الشهداء وأحرقوها عن آخرها، حمل شمر على فسطاط الحسين حتى طعنه برمح فكاد يهوى على نسائه وأبنائه وأخوته فصرخت النسوة، ومزق صراخهم نياط القلب حين نادى شمر متوحشاً زمومًا:

- عليَّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله.

فصاح به الحسين:

- حرقك الله بالنار.

ساعتها رحل شمر دون أن يشعل نار حقده في فسطاط الطهر.

وبدأت قائمة الشرف في الاكتمال.

الشهداء يذهبون إلى ربهم، يوصون من يحيا بالذي يحيا بينهم شهيدًا ويستشهد بينهم حيًا.. يوصونه بالحسين!

حتى التفتوا فإذا هم قلة يعدون على أصابع اليد الواحدة وإنهم باتوا لا يستطيعون أن يمنعوا حسينًا ولا أنفسهم، فتنافسوا في أن يقتلوا بين يديه:

- يا أبا عبد الله.. عليك السلام.. حازنا العدو إليك، فأحبَبْنا أن نُقتل بين يديك نمنعك وندفع عنك.

- مرحبًا بكم.. ادنوا مني..

فدنوا منه..

أتياه ابْنَا عم وأَخَوانِ لأم.. واقتربا منه وهما يبكيان.

- أي ابنَيّ أخي ما يبكيكما؟

- جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي ولكنا نبكي عليك، نراك قد أحيط بك ولا نقدر على أن نمعنك.

ثم قاتلا بين يديه..

اقترب منه حنظلة بن أسعد:

- أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟

فقال الحسين:

- رُح إلى خير من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلَى.

فهتف به حنظلة:

- السلام عليك يا أبا عبد الله صلى الله عليك وعلى أهل بيتك وعرَّف بيننا وبينك في جنته.

قال الحسين:

- اللهم آمين.

فقاتل حتى قتل.

جثا أبو الشعث الكندي على ركبتيه وبين يدي الحسين ورمى بمائة سهم، أصابت كلها عدا خمسة فقط..

ثم قتل.

علي الأكبر بن الحسين، مضيئًا منطلقًا، رافعًا سيفه على الظلم وفرسانه والدنيا وزينتها، بين لحظة وأُخرى ينظر لأبيه فيشرب يقينه ويمتص رحيق جهاده، ويعدو على العدو يقتل ويصرع، حتى لمحه مرة بن منقذ أحد فرسان الظلم فأوجس في نفسه أنه قاتله، ولما هم علي برفع سيفه على ظالم جديد.. استقبله مرة بطعنة حادة عميقة أوقعت عليًا فوق الأرض، فاجتمع حول حشد من السيوف التي تزاحمت فوق جسد الشاب وأعملت فعلها الوحشي السافر في الفتى..

اقترب الحسين محتسبًا الأجر عند ربه، ولثم ولده وبكى دمعه وهمس بقوله: «قتل الله قومًا قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول على الدنيا بعدك العفاء».

ثم التفت:

- احملوا أخاكم..

اندفع غلام من آل الحسين، عليه إزار وقميص، مذعورًا من صوت السيوف ولون الدماء وعصف الجثث، يلتفت يمينًا وشمالاً باحثًا عن حضن دافئ ينقذه من بشاعة ما

يحدث، فإذا برجل يقبل راكضًا بفرسه، حتى إذا دنا منـــه.. مال عليه.. وقطعه بالسيف!

وبينما وقف صبي من أبناء الشهيد في حجـــره، وقـــد حاول أن يغمض عينيه مبتعدًا عن الدم المسكوب والجـــرح المفتوح، إذا رماه أحدهم بسهم، فذبحه في حجر الحســـين.. فتلقَّى الحسين دمه في كفَّيه ثم صب الدم على الأرض وبيده المغطاة بدماء ابنه رفعها لربه:

- رب إن تك حبست عنا النصر من السماء فاجعـــل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين.

مرت دقائق القتال عصيبة ودنت الشهادة حتى أعنـــاق الرجال وعطش الحسين واشتد به العطش، فاقترب ليشـــرب من الماء فرماه حصين بن تميم بسهم فوقع في فمـــه فجعـــل يتلقى الدم من فمه ويرمي به إلى السماء:

- اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا. ولا تـــذر علـــى الأرض منهم أحدًا..

ودخل الحسين معركته الأخيرة عطشانًا..

للماء... والشهادة.. ولقاء ربه.

وحيدًا الآن..

وحيدًا جدًا..

الحسين أمام أربعة آلاف مقاتل إلا قليلاً..

وحيدًا في الصحراء والرمال والقتال والعدل والنقاء والبقاء وحيدًا تمامًا..

النساء يقفن أمام الخيام، ينظرنَ باكيات مروعات مفزوعات لهذا المشهد اللانهائي.

علي بن الحسين طفله الصغير العليل المريض ينظر في حضن السيدة زينب، ينظر وهو معروق محموم هذا المشهد المفجع.

وحيدًا جدًا..

خيل سقطت وأُخرى وقفت مجهدة مرهقة، مدلاة الأذن والرؤوس، أجساد أُلقيتْ.. ودماء انتثرت وأعضاء بُعثرت، وسيوف تكسرت ورماح تحطمت وثياب تمزقت وخيام أُحرقت..

وحيدًا تمامًا..

والكل يعرفه..

وحيدًا جدًا.. قادمًا من زمن النبوة، صاعدًا إلى ربوة الجنة تحاصره عيون وسيوف ورماح وخيول تتشارك وتتقاسم كلها السواد الأكيد...

نادى شمر في الناس:

- ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل.. اقتلوه.

فحمل عليه من كل جانب.. وضربه سيف لزرعة بن شريك في كفه اليُسرَى ثم ضرب على عاتقه..

وانفضوا عنه وهو ينوء ويكبو.

وحمل عليه سنان بن أنس النخعي فطعنه بالرمح.

فوقع.

جثا على ركبتيه وكتفيه.. وصدره..

التفوا واستداروا وعبثت خيولهم بالرمال.

واندفعوا.

وانهالوا بالسيوف على جسده.

ثم هتفوا في خولي بن يزيد:

احتزْ رأسه.

فأراد أن يفعل.. فضعف وارتعد، لكنه لمح بريق سيف وسوط السلطان، فنزل عن فرسه وذبحه واحتزْ رأسه.

... ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضـــربة فـــي جسد الحسين.

تقدموا فانتزعوا سيفه وثيابه..

وسرقوا سراويله (...)

وبقيَ وحيدًا.

وحيدًا تمامًا.. عاريًا على الأرض المنكوبة..

ثم تقدم القتلة بخيلهم فداست على عظامـــه ولحمـــه.. ومرت على جسده وضغطت على أطرافه.. وحطمت بدنه.. وأصابته بالكسور والرضوض والجروح.

حوافر الخيل فوق صدر الحسين............!

خيل زمن يزيد ودولة زياد........!

فوق صدر وحلم الحسين..

* * * *

الجزء الثاني

بحر الدم

الشمس والقضبان!

جلس المختار يرقب السجن حوله..

كان حائط السجن عاليًا، وجدرانه سميكة، هواؤه غليظ وظلامه ثقيل، وكانت الأيام تمر فوق صدر المختار، وهو يكظم غيظه ويحبس ثورته ويهدئ روعه ويمني قلبه بإشراق الأيام المقبلة، وخروج النور من حضن ظلام السجن..

ما كان يحز في نفسه، ويضغط بإثمه صدره، ذلك الابتعاد عن الصحراء التي يقاتل فيها الحسين بن علي.

هذه القيود والقضبان والأسوار والمسافات التي تفصل جسده وساعده اللذين يحملان رمحه وسيفه للمقاتلة مع الحسين حربًا ضد يزيد وزياد..

التفت المختار وحدث نفسه:

- هذا هو السجن الذي ألقاه فيه عبيد الله بن زياد في قصر الكوفة المشيد على قبور الحرية والأمن. يوم

خرج من قريته البعيدة إلى الكوفة لنصرة مسلم بن عقيل، والوقوف إلى جانبه ومحاصرة قصر الكوفة وإسقاط الأمير (..).

يومها جاءه الخبر أن مسلم قد خرج، ولأن الموعد كان مفاجأة واللحظة مبكرة عما اعتقدوا واحتسبوا.. فقد هرول بعشيرته نحو الكوفة حتى يلحق بعقيل.

وهناك على الحدود استقبلوه بالخبر، لقد قتل مسلم بن عقيل.

ومن هناك أيضًا ألقى الوشاة إلى عبيد الله بنبأ مناصرته لمسلم وعزمه القتال مع الحسين.

تحسس المختار عينه المصابة.. ولمس جفنه المقلوب، وجرح عينه المتشنج، وتذكر عندما قادوه إلى قصر عبيد الله..

وقف أمامه، معتدًا بموقفه، محاولاً المقاومة بالكلمة بعد أن أسقطوا السيف عنه، وأعلنه عبيد الله بن زياد أنه لولا شهادة وشفاعة البعض لكان قد ألقى بعنقه من فوق القصر.

ثم غرس قضيبًا في عينه فأصابها.

وببشاعة تقطُر حقدًا، أمرهم بزجه إلى السجن العميق..

هنا محتجزًا دون لقاء الحسين.

محبوسًا عن نصرته والدفاع عنه..

ولم يكن المختار يدرك أن لحظة ما تشاجرت هذه الأفكار والذكريات في رأسه، كان خولي بن يزيد يحمل رأس الحسين المذبوح ملفوفًا في أحد الأجولة.. قادمًا لقصر الكوفة ليقدمه للأمير هدية النصر وعلامة الفوز.. وقطع دابر الحسين وثورته..

فلما وجد الحراس قد أغلقوا الأبواب وران الصمت على الجدران آثر العودة إلى بيته حتى يطلع للغد صباح.

لم يكن المختار يعرف لحظة سدت الظلمة عن عينيه نصف الضائعة رؤية وحشية السجن وحديد القيود، أن خولي دخل على زوجته فرحًا سعيدًا، فأغلق الباب ودنا منها وهو يختلس نظرات لشعرها المحلول.. وقال لها:

- جئتك بغنى الدهر. هذا رأس الحسين معك في الدار.

وفزعت الزوجة.. وفرت من زوجها..

ولم يجد الزوج بُدًا أمامه من وضع رأس الحسين رضي الله عنه تحت السرير!!

ولحظة ما استدارت الشمس وأكملت دورتها في السماء، فألقت في زنزانة المختار لونًا من الضوء الخافت، كانت السيدة زينب تمر مع أهل بيت النبي وهم أسرى مقيدون مخذولون يقودهم الحرس ويدفعهم الرجال.

كانت تمر على صحراء كربلاء في طابور الأسرى، فرأت رمالها غارقة في دماء الشهداء، والأجساد قد تفرقت وتبعثرت والجثث ملقاة في العراء، وحبيبها وأخوها وسيدها وإمامها الحسين بن علي جسدًا مثخنًا بالجراح والطعنات مفصول الرأس عن الجسد، عاريَ الجسم والبدن، وحده في رمال الموت التي تبعثرها الرياح ودماء الشهادة التي اختلطت بندَى الصبح..

كانت السيدة زينب تصرخ:

يا محمداه.. يا محمداه.. صلَّى عليك الله، وملائكة السماء هذا الحسين بالعراء مرمل ومقطع الأعضاء.. يا محمداه وبناتك سبايا وذريتك مقتلة، تسفَى عليها الصبا.[١٣]

تسرب الخبر إلى زنازين القصر.. وتبادله الحرس والجنود والمعتقلون، تجاوز القضبان والأبواب والأسوار والجدران، ولما خرق الخبر أُذن المختار أن الحسين قد قتل كانت أول كلماته:

- والله لأقتلن كل من قتله.

وقذف بقيوده الحديدية إلى الهواء.

* * * *

---

(١٣) تسفَى: تذر وترمي.. والصَّبا: هي ريح في شمال الجزيرة.

لأقتلَنَّهم!

لم يكن أحد ليعرف أنه عندما صرخ السجين الغارق في قيوده، وظلام المعتقل الرهيب وهو يقسم بأنه سيقتل كل قتلة الحسين، كل من رفع رمحًا وسيفًا وكلمة ضد الحسين بن علي، الإمام، الزعيم، وابن بنت النبي سيد المسلمين وابن سيدها..

لم يكن أحد ليعرف أو ليصدق أن هذه الصرخة يمكن أن تتحول إلى جيوش جرارة، وأن حلم هذا السجين سيتحول إلى حقيقة تطارد القتلة، وتأتي بهم في بروجهم المشيدة وقلاعهم المحصنة..

كانت قبضة المختار تضرب في الحائط الأصم..

وتدرك أنه سيتحطم وينطق.. ويفجر الدنيا.. غضبًا!

بين أربعة آلاف شهيد سقطوا على أحد الجسور على نهر دجلة في الأرض الواسعة التي حكمها الفرس في العام

الثالث عشر من الهجرة، عندما ذهب إليها جيش المسلمين فاتحًا في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كان أبو عبيد بن مسعود الثقفي قائدًا للجيش وأصابه هناك سبق الشهادة.. وتكريمًا لبطولته وقيادته أطلقوا على هذا الجسر اسمه «جسر أبي عبيد»..

أبو عبيدة الثقفي.. هو والد المختار سجين قصر الكوفة.. والذي تعيش أخته صفية بنت أبي عبيد الصالحة العابدة في مكة المكرمة إلى جانب الحرم الشريف وزوجها الشريف الفقيه عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وأرسل المختار عبر هذه الأراضي الشاسعة خطابًا إلى زوج أخته يرجوه فيه التدخل بالوساطة لدى يزيد بن معاوية لكي يفرج عنه ويطلق سراح سجنه الطويل، وخاصة أن دماء الحسين قد أُريقت والعرض قد استوى ليزيد وملكه.

وصلت الرسالة إلى عبد الله بن عمر الذي حركته أواصر القُربى ومشاعر الإخلاص؛ فأرسل بدوره إلى يزيد بن معاوية خطابًا لتخليَةِ سبيل المختار.. وقد كان..

لكن عبيد الله بن زياد كان يتمنَّى أن يطول حبسه وينهي أجله داخل جدران السجن العالية، لذلك اشترك على

المختار ألا يراه بعد ثلاثة أيام في الكوفة وإلا برئـــت منـــه الذمة.

ولم تكن الأيام الثلاثة تنتهي حتى كان المختـــار فـــي طريقه إلى الحجاز..

حيث كانت أنباء تمرد عبد الله بن الزبير في مكة قـــد وصلت إليه، فذهب المختار وهو يعد نفسه بنيل المراد وبلوغ المرام.

- ما أقوله لك فاحفظه عنِّي حتى تـــرى مصـــداقَهُ.. هكذا أكد المختار لصاحب له في الطريـــق إلـــى الحجاز، لما سأله عما أصاب عينيه فـــأخبره أنـــه عبيد الله بن زياد وقال:

- قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأعضاءه إربًا إربًا..

فلما تعجب صاحبه من مقولته، نصـــحه المختـــار أن يحفظ عنه حتى يرى بنفسه مصداقية كلامه ووعـــوده.. ثـــم طلب منه أن يبلغ كل من يلقاه:

- إن المختار في عصائبهِ من المسلمين، يطلب بـــدم المظلوم الشهيد المقتول سيد المسلمين وابن سيدها

الحسين بن علي، فوربك لأقتلنَّ بقتله عدة القتلى التي قتلت على دم يحي بن زكريا عليه السلام.

ويحدث الصاحب نفسه من غرابة ما يسمع من المختار:

هذا الذي يذكره مما يزعم أنه كائن، أشيء حدث به نفسه، والله ما أطلع الله على الغيب أحدًا، وإنما هو شيء يتمناه فيرى أنه كائن..

وينهي الصاحب محاورته الذاتية بحكمة منطقية نحفظها الآن في كتبنا.

- فوالله ما كل ما يرى الإنسان أنه كائن يكون[١٤]

لكن الإضافة المهمة والخطيرة في هذه الرواية أن الرجل لما عاش الأيام والسنوات التي تلت هذه الواقعة قال:

- والله ما مت حتى رأيت كل ما قاله..

لقد تحققت نبوءة المختار تفصيليًا وجعل من حوله يسأل نفسه:

---

[١٤] ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

- أهو علم أوتيَ للمختار، أم أمل حوّله الله إلى حقيقة؟!

تحفل حياة المختار بالكثير من قصص التنبؤ ورؤية الغيب[١٥] لكننا نعتقد أن الرجل كان صاحب عزيمة جبارة وقدرة خارقة على المثابرة والسعي لما يريده.. كما كان شديد الاعتداد بنفسه وعارفًا لمقدارها.

فيوم جلس مع عبد الله بن الزبير في الكعبة وهم يستعدون لحركة انفصالية استقلالية عن يزيد بن معاوية والدولة الأموية.. طرح المختار مبايعة مشروطة للزبير.

قال المختار:

- إني قد جئتك لأبايعك على أن تقضي الأمور دوني وعليَّ أن أكون في أول من تأذن له، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك.

المختار يطلب بوضوح أن يكون الرجل الثاني وأمير هذه الثورة.

---

[١٥] سيأتي ذلك بالتفصيل في الفصول القادمة.

وأمام هذا الكبرياء المزعج واستعراض القوة المبالغ فيه لم يجد الزبير إلا القول:

- أبايعك على كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ.

فرد عليه المختار:

- شر غلماني أنت مبايعة على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ما لي في هذا الأمر من الحظ ما ليس لأقصى الخلق منك.. لا والله لا أبايعك أبدًا إلا على هذه الخصال.

ولم يجد الزبير إلا أن يبايعه على شروطه ويجعله قائده وذراعه اليُمنى القوية..

الاعتداد بالنفس والطموح الواسع والإدراك الكبير لما يحدث حوله وموازين القوى السائدة كانت من أهم صفات المختار إلى جانب القوة الشجاعة النادرة الفائقة.

ولهذا خاض المختار حربًا ضروسًا مع الزبير في مكة من أجل مقاومة حكم يزيد وتنصيب الزبير أميرًا للمؤمنين..

حتى جاء خبر موت يزيد بن معاوية وخلـو العـرش مـن ملكه.[١٦]

وأصبح شارع الإمارة مفتوحًا أمام الزبيـر، واسـتغل فترة الحكم الانتقالي في عرش الأمويين، وأعلن نفسه أميـرًا على مكة وبدأت المبايعة تأتيه من جوانب شتى في الحجاز.. حتى من الكوفة..

وأصبح عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين على العراق والحجاز..

خمسة أشهر فقط، مكث خلالها المختار بجوار عبد الله بن الزبير لا يترك فيها فرصة لكي يلتقط أي قادم من العراق أنفاسه قبل أن يسأله الأحوال هناك؟ وما لبـث أن اغتسـل، ودهن جسده دهنًا يسيرًا، ولبس ثيابه واعتمَّ بعمامتـه وتقلـد سيفه، وركب راحلته ومضى إلى العراق..

وحده فقط..

معه الفرس والزاد والسيف..

---

[١٦] كان ذلك في ربيع الأول لعام ٦٤ هجرية، وتـولى ابنـه معاويـة الحكم لأربعين يومًا ثم مات.

حتى دخل الكوفة..

لم ير المختار في الكوفة أي جالس أمام داره، أو فوق سطحه، عابرًا الطريق، سائرًا فوق دابة، متحلقًا أما مسجد.. إلا.. وحياه:

- أبشر بالنصر واليسر والفلج.[١٧]

وخرج له الناس يسألونه ويستفهمون منه ويحكون له.. لكنه لم يحادثهم بل طلب أن يجتمعوا به الليلة في داره.

وفي الليل..

جاءت الجموع وتحلقت حوله وبصوت واثق حازم حاسم هادئ ساخن قال:

- أما بعد.. فإن.. المهدى[١٨] أبن الوصى[١٩] محمد بن علي بن أبي طالب.

بعثني إليكم أمينا ووزيرًا ومنتخبًا وأميرًا، وأمرني بقتال الملحد والطلب بدماء أهل بيته والدفع عن الضعفاء.

---

[١٧] الفلج: أي الفوز والنصر.

[١٨] يقصد بالمهدى محمد بن علي شقيق الحسين من والده.

[١٩] يقصد بالوصي علي بن أبي طالب.

واستطاع المختار أن يقنع ويستميل ويجند صفوفًا من المقاتلين والأنصار من الشيعة، إلى جانب شعاره المرفوع «الثأر للحسين» وتحت رايته المزعومة أنه قد حصل على توكيل من محمد شقيق الحسين والذي يعيش في الجزيرة، بأخذ الثأر.

حتى همس عمر بن سعد بن أبي وقاص لأمراء الكوفة، أنه لا بد من القبض على المختار قبل استفحال الأمر وثورة الانتقام والتي يعلم أن رأسه هو أول من يطير فيها (..).

..عنها والتف الحرب حول دار المختار في لحظة مباغتة.

وذهبوا به إلى السجن مرة أُخرى..

كل من سمع المختار في سجنه، أكد أنه كان يقسم دائمًا:

- أما ورب البحار والنخيل والأشجار والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار،

لأقتلنَّ كل جبار بكل لَدْن[٢٠] خطَّار، ومُهَنَّد بتَّار[٢١] في جموع من الأنصار، ليسوا بميل[٢٢] أغمار[٢٣] ولا بعزل أشرار، حتى إذا أقمت عمود الدين، ورأيت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين وأدركت بثأر النبيين.. لم يكبر على زوال الدنيا.. ولم أحفل بالموت إذا أتى (..).

حتى لحظات السجن القاسية لم تهن عزمه على الثأر.

وحتى لحظات الاعتقال المروعة لم تفقده الأمل في قدرته على أن يطول أعناق قتلة الحسين الذين تفرقوا وابتعدوا..

لكن هل كان ما يريده المختار فقط هو الثأر؟

إذن لماذا؟

مرة أُخرى هذا الاستفهام المثبت على جدار التاريخ!

---

[٢٠] لدن: رمح.

[٢١] مهند: سيف.

[٢٢] ميل: جمع أميل وهو من لا رمح له.

[٢٣] أغمار: جمع غمر بضم فسكون وهو الذي لا تجربة له.

يزيد والقرد!

جلس يزيد بن معاوية على مقعده الوثير يتقلب في ريش النعام، وترفرف عليه الرياش ويزدحم حوله الحرس وتبدو أمامه موائد الطعام المزدحمة وغلمان القصر الملاح أنصاف العرايا، يصل لسمعه غناء الطيور فوق أغصان حدائق القصر، مختلطًا بحفيف ثياب الجواري يسبحن في ردهات القصر وخلف ستائر الحريم..

جلس على مقعده واضعًا على حجره قردة حيث كان من هواة جمع وتربية القرود (..) وجعل يداعبها ويدعوها إلى أداء الرقصات والألعاب الدمشقية الشهيرة ومدربها الطيع اللزج يقف بجواره مبتسمًا فخورًا بقدرته على تحريك الحيوانات وتدريب القرود وإرضاء الأمير، ألا ويزيد يضع يده في فمها مداعبًا.. أن غضبت القردة وهاجت وتوحشت وافترست واحتوت جسده بأرجلها وغرست فيه أسنانها البشعة وعضته..

وعندما كان المدرب والحراس يحاولون إنقــاذه مــن سعارها وعندما كان يزيد يدفعها بيدين يائستين مذهولتين كان الموت قد سرى في جسده وأعلن عن آخر لحظات حياتــه.. قيل أن هذا سبب موت يزيد بن معاوية بعد ثلاثة أعوام مــن إراقة دم الحسين وذبحه في كربلاء!

علق عبيد الله بن زياد رأس الحسين على خشــبة[٢٤] وأخذت شرطته تدور بــه فــي أنحــاء الكوفــة.. دروبهــا وشوارعها وصحرائها ومراعيهــا ومســاجدها وقصــورها وخيامها..

ثم تم شحنها إلى يزيد بن معاوية في دمشق..

داخل رأس الحسين..

عبر ردهات القصر.. صعد سلمه، مرَّ بأيدي خدمــه، ارتفع إلى شرفاته، دار في ساحته..

دخل إلى سرير العرش..

يزيد جالس على العرش وحولــه الأشــراف (دائمًــا الأشراف!!) ووضع الرأس بين يديه..

---

[٢٤] كان رأس الحسين هو أول رأس رفع على خشبة في الإسلام.

وفي لزاجة لا حدَّ لها قال يزيد:

- أما والله يا حسين.. لو أنا صاحبك ما قتلتك.

وهي جملة يعتقد البعض أنها تبرئ يزيد من دم الحسين.. وترى فيه صاحب رحم وغير راض المجزرة.. في كربلاء، وأنه لم يكن يتمنى أبدًا لأبناء العمومة أن يُقتلوا ويلقوا هذا المصير..

ومن ثم فصاحب الإثم هو عبيد الله بن زياد!!

أما يزيد فلم يكن ليقتله.

لكن التاريخ – وحده – يجزم أن هذه الجملة جاءت من خلف قلبه وبنفاق بالغ التردي. حاول أن يخفي فيها غلته ونقمته وتشفيه في الحسين.

التاريخ – وحده – يثبت أن يزيد حاول أن يدعي البراءة أمام الأشراف ويخلي سبيل ذنبه أمام رجال قصره.. وقبلها أمام نفسه!

لكنه لم يستطع أن يخفي حقيقته أمام علي بن الحسين، الصبي الذي أنقذه القدر من الموت بالصدفة حيث كان مريضًا أثناء المذبحة، ولأنه لم يبلغ الحلم فقد تكرم ابن زياد بعدم ذبحه بعد المعركة، فقد تشبثت به السيدة زينب،

واحتضنته وقاتلت من أجله، والتصقت وانصهرت ببدنها في بدنه، لما حاول الحرس أن ينتزعوه منها ليقتلوه.. عندها آثر ابن زياد أن يتركه وكان كوب الدم الذي شربه امتلأ لحافتـــه ولم يعد يسمح بقطرة دم جديدة.

دخل على بن الحسين، إلى يزيد فناداه الأخير بمجـــرد رؤيته:

- يا علي، أبوك الذي قطع رحمـــي وجهـــل حقـــي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت.

أجابه علي:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [٢٥]

فقال يزيد:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْـــدِيكُمْ وَيَعْفُـــو عَن كَثِيرٍ﴾ [٢٦]

---

[٢٥] سورة الحديد، آية ٢٢.

[٢٦] سورة الشورى، آية ٣٠

هكذا كان يزيد متصورًا لخروج الحسين، وهكذا كان مؤمنًا تمامًا أن أي عاصٍ، حتى ولو كان الحسين، لا بد أن يقاوم ويقتل ويذبح وأن عرشه وولايته لا تسمحان أبدًا بالتفريط مع المعارضين والقلة المنحرفة (.....) وأصحاب الدعوات الهدامة التي يمكن أن تغرس فأسها في رأس دولته.

.. لقد كان يزيد راضيًا بشكل مطلق عما فعله عبيد الله بن زياد وقتلة للحسين.

فقد خلع يزيد الوالي النعمان بن بشير عن الكوفة، لأنه لم يستطع مقاومة تيار الحسين ورجاله، وكان مطلوبًا أن يأتي رجل من حديد ونار يواجه الإرهاب بالإرهاب (...) كما أن أوامر يزيد ومنذ البداية كانت واضحة تمامًا لزياد، عليه أن يتخلص من هذه الثورة ويطيح برجالها بأي الوسائل الممكنة، وحتى إن لم يطلب منه بصراحة أن يقتل ويسفك دم الحسين، إلا أن أوامره كلها تقود لذلك حتمًا..

أيضًا، فإن يزيد، حتى لم يكن يملك حنكة سياسة تدفعه إلى عزل زياد بمجرد أدائه الرفيع (..) لمهمته المطلوبة، فبعد قتل الحسين أصبح ابن زياد ورقة محروقة يمكن

التخلص منها، ليظهر أنه غير راضٍ عن أسلوب معالجة الموقف، لكي يهدئ روع ويمتص غضب أنصار الحسين وشيعته، لكنه حتى لم يكن يملك هذا الوعي الذي يملكه أنصاف الحكام والأمراء في وقتنا الحالي.

بل على العكس، لقد أفرط يزيد، بغبائه الذي فضحه، في تكريم زياد ومنحه الأوسمة والنياشين، التي تليق بعصره، وأعطاه ولاية الكوفة والبصرة معًا، بل وطلب منه بعد ذلك أن يؤدي نفس المهمة مع أهل المدينة المنورة عندما حاولوا الخروج على حكم يزيد.

يزيد بن معاوية قاتل الحسين بن علي..

هكذا بلا مواربة ولا محاولة لتزيين موقفه..

ولم تكن هذه هي المصيبة الوحيدة في حياة يزيد!

.. .. ..

إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، تعزف الطنابير[٢٧] ويضرب عنده القيان[٢٨] ويلعب بالكلاب ويسامر الحراب والفتيان.. وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه (....)

---

[٢٧] الطنابير: الآلات الموسيقية.

هكذا أخبر وفد المدينة الذي قدم على يزيد في عرشه بعد عام من مقتل الحسين. والتقى بهم يزيد في محاولة واضحة لشراء رضاء عليه القوم بالمدينة، بعد أن تذمروا من تولية فتى غرير[٢٩] ليس له في الملك شأن وفي الإمارة شأو، وتوليته أميرًا على المدينة بأشرافها وأفاضلها وصحابة.. نبيها.

فاستقبل يزيد وفد المدينة، لكي يسترضيهم ويشتريهم، هكذا بوضوح، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، بل ومنح عددا منهم، مائة ألف درهم لكل واحد (....).

لكنهم لما عادوا إلى المدينة لم يكتموا الشهادة وأعلنوها، حتى الذين منحوا منحة المائة ألف درهم.

«أنه لا يمنعني ما صنع إلى، أن أخبركم خبره، وأصدقكم عنه والله إنه ليشرب الخمر وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة».

---

(٢٨) القيان: الإماء والجواري.

(٢٩) عثمان بن محمد بن أبي سفيان.. غرير: تعني هنا بلا خبرة وبلا حكمة.

وبلغ تذمر المدينة حدًا عاليًا مما جعلها تعلن عصيانها وتخلع عن يزيد بيعتها له.

ولم يصبر يزيد على أن تظهر أزمة جديدة تهدد سرير العرش فأرسل إلى عبيد الله ابن زياد (ابن مرجانة) أنه يغزو المدينة (مرة أُخرى) فقال ابن زياد:

- والله لا أجمعها للفاسق أبدًا، أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغزو البيت!!

ولم يغلب يزيد في إيجاد الشخص المناسب «مسلم بن عقبة».

وصف جيشه وأكمل عدته وحشد فرسه وفرسانه.

وأملاه القرار العسكري..

- أدع القوم ثلاثًا.. فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثًا.. فما فيها من مال أو رقة[٣٠] أو دابة أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فأكفف عن الناس.

---

(٣٠) دراهم

وكانت مذبحة بكل المقاييس، جرت فيها الدماء أنهارًا..

دماء من؟ وأين؟

دماء صحابة وذريتهم والتابعين لهم..

وفي المدينة المنورة، بجوار مسجد الرسول، وفي مكان عبرت فيه أنفاسه والتفت فيه رأسه الكريم، ونزل عليه جبريل، وارتفعت فيه سيوف الحق ضد أباطيل الكفر.

نهر من الدم في ثلاثة أيام..

بقروا فيها البطون، واعتدوا على النساء وداسوا في البيوت وحطموا الأبواب وقتلوا الشيخ والصبي والفتاة وجعلوا عاليها سافلها..

حتى أن الإحصاءات تقول.. أن عدد من قتل في الأيام الدامية الثلاثة كان سبعمائة قتيل..

وتضيف أيضًا:

أن ألف امرأة حبلت سفاحًا في الأيام الثلاثة نتيجة هتك الأعراض واغتصاب النساء!! ثم يقولون أنه بريئ من دم الحسين!

لقد انتهك حرمة المدينة، وهو ما كان الحسين يدركه منذ ثلاث سنوات، كان يعلم أنهم سيصلون له، أكان في المدينة أم في مكة.

«لو لم أعجل.. لأخذت»..

ويؤكد نهر الدم الذي جرى في المدينة، أن يزيد لم يكن يعنيه إلا العرش، ويؤكد سبق الإسرار والترصد الذي جعل سيفه ينتظر الحسين على مدخل العراق، ليريق دمه ويطيح برأسه، ويثبت عرشه..

جعله أيضًا ديكتاتورًا محترفًا تصفويًا وبنفس الإصرار والترصد – والتعمد والتخطيط – ليرسل جزارًا آخر للمدينة ليريق دم الصحابة ويطيح برؤوس ذريتهم ويثبت عرشه.

يستوي في ذلك دم الحسين.. ودم ذرية الأنصار والمهاجرين، تستوي في ذلك رمال صحراوية صفراء في أرض مفتوحة أو بساط أخضر داست عليه يومًا أيدي الرسول والصحابة في المدينة المنورة..

يستوي العرش، وعنده..

حراسه ووزراؤه وسفَّاحوه، سواء كانوا من صنف عبيد الله بن زياد أو مسلم بن عقبة، إنهم مجرد دمى دموية

لإنفاذ أمر الديكتاتور الجالس في دمشق، وكل شيء يقود يزيد إلى الصعود للهاوية.. لأعلى الهاوية!

- حاكم فردي، لا يشارك الحكم مستشار ولا وزير
  لا تجتمع حوله من أهل الفضل والخير والرجحان.
  بل لقد أبعد بعضهم، وأرشى آخرين، قبل كثيرين..

بالإضافة إلى أن البيت الأموي لم يكن عامرًا بخلصاء أو عقلاء أو رجالات دولة وسلطان. لذلك تركوا يزيد يسير نحو الهاوية بانتظام وتلهف لا يحسد عليه!

ودون أن ينبهه أحد وهو مشغول في أزمة الجارية سلامة التي اشتراها ثم اكتشف وقوعها في حب أحد الرجال بالمدينة مما جعله يجلس ساعات طويلة يسمح لحوارها وغزلها (العفيف).

من وراء ستار..

لم ينبهه أحد وهو مشغول في حل هذه المشكلة والعطف على الجارية وحبيبها وإعادتهما للعش الهادئ..

ولم يلفت نظره أحد إلى أن الله يرى والتاريخ يكتب.. لكي يفيق وقد امتلك يزيد أدوات الطغيان عزَّ لملك أن يجد مثلها.. لقد وجد في عبيد الله بن زياد ضالَّته المنشودة لذبح

الحسين وثورته دون قلق أو توتر! وعثر في مسلم بن عقبة على الكنز المفقود الذي استباح لنفسه قتل أهل المدينة وسلب أموالهم واغتصاب نسائهم وهدم دورهم وديارهم..

كذا فإن يزيد استند إلى سلطان الفقه الحكومي ولقيَ عند أنصاف الفقهاء فتوى لكل ما يفعل ودفاعًا وتبريرًا لما يقول، حتى بلغ ولاؤهم له دس الروايات المؤيدة له، والمدافعة عنه، في أوراق التاريخ، لعلها تصلح من صورته الدميمة!

لقد كان يزيد بالفعل واحدًا من الحكام الذين أعمتهم الجهالة، وأغرقتهم الشهوات؛ فطال النساء والغلمان والخمر والقردة والصيد والشهوة والنهمة.. وأعطى نموذجًا قديمًا جديدًا لهؤلاء الذين يبيتون لياليهم في الملاهي الليلية الخاصة بهم ويعيشون أوقاتهم على صدور النساء وظهور الغلمان!!

لا يعرف الديمقراطية ولا الحرية.. لا يعرف شعبًا ولا وطنًا.. يعرف عرشه.

يزيد الحاكم الذي رُويَ عنه.. أنه كان يشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدببة والقرود. وما

من يوم إلا يصبح منه مخمورًا، وكان يشد القرد على فــرس مسرجه بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان..

وكان يسابق الخيل وكــان إذا مــات القــرد حــزن عليه.....

هذا الذي قتل الحسين بن علي...

قتله قرد!

* * * *

يا منصور أمت !

مرة أُخرى..

عاد المختار إلى السجن بظلامه العميــق، الجــدران العالية، القيود الثقيلة، عيون الحرس، رماح الجنود، انتظـــار بزوغ الشمس لحلول لون النهار الضعيف في جب القصـــر الجهم.

في السجن.. سجن عبد الله بن الزبير، كما كان سجن بن معاوية نفس السجن والقضبان والأحجار..

إن اختلفت رؤوس الحكام وأسماؤهم..

.. وكانت السيوف بعيدة عن يديه أيضًا في سجنه، فما كان من الشيعة إلا أن ثاروا وحاولوا الأخذ بــدم الحســين، وخرجوا لملاقاة جيش عبيد الله بن زياد القادم لغزو الكوفـــة

والبصرة وإعادة ضمها إلى ملك مروان بن الحكم[٣١] لكن الشيعة – بقيادة سلمان بن صرد – لقيت هزيمة قاسية تمامًا.

ووصلت الأنباء إلى المختار في سجنه، فأرسل خطابًا ناريًا إلى أكبر رؤوس الشيعة في الكوفة، يؤكد لهم أنه – المختار – وحده القادر على الانتقام من قتلة الحسين والثأر لدمائه الشريفة.

- إني أنا المأمور، الأمين المأمون، أمير الجيش، وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار.

فأعدوا واستعدوا وأبشروا واستبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وإلى الطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلين والسلام[٣٢]

وجاءه الرد..

---

(٣١) بعد وفاة معاوية بن يزيد انتقلت الإمارة إلى بيت مروان بن الحكم، وصار أميرًا للمؤمنين على الشام بينما ظل الزبير على العراق والحجاز.

(٣٢) المحلين: يقصد بهم الذين أحلوا دم الحسين.

إجماع من الشيعة عليه.. وانتظارهم له..

ومرة أُخرى (أيضًا) يبعث المختار بجواب إلى صهره الفقيه الورع عبد الله بن عمر، ويرجو منه التوسط لدى الزبير للإفراج عنه.

ويخرج المختار من السجن..

ولكن هذه المرة.. أقسم ألا يعود، وأن يحكم هذا القصر وأن يضع في نفس السجن أعداءه ومناهضيه!

أعداءه وحدهم!

كان أول من استقبل المختار بعد خروجه الثاني من السجن، واليا الكوفة عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة، وحلَّفاه بالله الذي لا إله إلا هو لا يبغيهما غائلة، ولا يخرج عليهما ما كان لهما من سلطان، فإن هو فعل، فعليه دية ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة، ومماليكه كلهم ذكرهم وأُنثاهم أحرار.

وكان أمام المختار أحد الأمرين، أن يرفض القسم لأنه يعلم يقيناً أنه خارج للانتقام من قتلة الحسين، وأنه لن يفعل ذلك دون إجماع البيعة عليه، وخروجه عن الحكم الحالي، واستيلائه على مقعد الإمارة في قصر الكوفة.

أو أن يحلف ويقسم!!

فحلف..

«فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين، فرأيت ما هو خير منها، أن أدع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير»!

كان يعني وصول المختار إلى داره في الكوفة، عودة الأمل إلى الشيعة في وجود نصير لها وقاد عليها، وصاحب دعوة للانتقام من قتلة الحسين جريئة وقوية وصريحة وباترة!!

وكانوا يدركون أن محاولة خمسة منهم للحصول على المبايعة له أثناء سجنه لن تكون بقوة المبايعة، ولا حجم المبايعين حال خروجه من السجن، وتواجده بين الناس.

وبالفعل بدأ أمره يقوى وساعده يشتد وأنصاره يكثرون وأصحابه يتكاثرون، ودعوته تنتشر وإمرته تعلن، حتى وصلت الأنباء إلى عبد الله بن الزبير، فأصدر أمرًا عاجلاً بعزل ولاة الكوفة وتعيين عبد الله بن مطيع واليًا عليها.

لكن حضور عبد الله بن مطيع لم يجعل شيئًا يختلف، بل سارت الأمور في تصاعد مستمر من مبايعة المختار وانتشار دعوته وأصحابه إلى الحد الذي نجح فيه المختار في

اختراق جهاز الأمن لدى ابن مطيع حتى أن حراسه الذين ذهبوا لاستدعاء المختار، وإرغامه على الذهاب للقصر (حيث تدبر له مكيدة هناك لسجنه لثالث مرة). حذروا المختار وأنقذوه..

وذهبوا إلى أميرهم يخبرونه بمرضه واعتذاره!

ولم يعد هناك إلا إصدار القرار بالخروج على الحكم وإعلان الانقلاب الصارخ ضد حكم الزبير، ثم التفرغ للانتقام. وربما حسبها المختار هكذا بينه وبين نفسه.

- الاستيلاء على حكومة الكوفة بعد صراع أهلي بها.
- امتداد نفوذه إلى البصرة وبعض البلدان المحيطة.
- ملاقاة جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد وقتله.
- التفرغ لقتل قتلة الحسين.

وربما لم تأت الخطوات بنفس هذا الترتيب، لكنها أدت إلى نفس النتائج.

من ناحية أُخرى، خالطت قلوب بعض أنصار المختار الشكوك في حقيقة توكيل محمد بن الحنفية (محمد بن علي بن

أبي طالب) للمختار، لأخذ ثأر الحسين والحصول على البيعة.

فأوفدوا وفد إلى ابن الحنفية في المدينة ليسألوه.

.... فإن أمرتنا باتباعه تابعناه، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه.

ومن الواضح أن ابن الحنفية رغم أنه لم يمنح أحدًا توكيلاً، ولم يكلف المختار بأي حركة سياسية انتقامية لصالحه أو لصالح أهل البيت، إلا أنه لما وجد نفسه وهو بعيد آلاف الأميال والفراسخ عن الكوفة يأتي إليه وفد معبرًا عن قوة المبايعة هناك، ووجود أنصار أشداء، وقائد عسكري قادر مشهور، واستعداد لحرب كاملة هو رمزها والمرشح لزعامتها حال نجاحها، فقد قرر أن يمسك العصا من المنتصف. وأن يخبرهم بطريق غير مباشر ولا صريح، أنه موافق على توكيل المختار وأنه راضٍ أيضًا عن الأخذ بالثأر.. فقال لهم:

- أما ما ذكرتم من دعاء دعاكم إلى الطلب بدمائنا فو الله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه..

واعتبر الوفد هذه إجابة إيجابية شافية.

وعادوا يحملون النصرة المؤكدة للمختار الذي فوجئ بموقف ابن الحنفية، وإن كان قد وضع هذا الموقف الإيجابي موضع احتمال لما علم بذهاب الوفد من وراء ظهره إلى المدينة، كما أنه قرر الإطاحة برؤوسهم إذا كذبوا هذا التوكيل! وهذا ما دعا المختار إلى الافتراء على الحنفية بشكل أقصى وأفدح، مستغلاً أمل محمد بن علي في إمامة أو ثأر.. حينما حاول إقناع إبراهيم بن الأشتر - واحد من أهم القادة العسكريين في التاريخ الإسلامي كله وفي مذهب الشيعة على وجه الخصوص - إقناعه بالانضمام إلى المختار ومبايعته.

ورغم أن هذه الرسالة ملفقة ومزورة تمامًا، فقد وافق إبراهيم بن الأشتر على أساسها (وفي قلبه شك أيضًا) على الانضمام.

والمبايعة..

وقد كان..

بطبيعة الحال، فإن مدينة كالكوفة لا شيء فيها يمكن أن يختفي، فقد علم الوالي والشرطة (وكانت تحت رئاسة

إياس بن مضارب) أن اثني عشر ألفًا قد بايعوا المختار من شتى الجهات والجبال.

وإن إعدادًا قائمًا للانقلاب على الحكومة، والاستيلاء على القصر، يتم إجراؤه في منزل المختار، بل ووصل الأمر إلى معرفتهم بموعد الانقلاب، وسارعوا إلى محاولة احتوائه قبل تفجره (.....)

وكانت الخطة مبنية على أمرين:

- الأولى: إغراق المدينة بالشرطة، في الأسواق وحول القصر في المداخل لإرهاب أنصار المختار وأثناء كل القبائل القادمة لنصرته على المضي قدمًا.
- الثاني القبض على قائد الجيش، وهو إبراهيم بن الأشتر لإجهاض قدرته العسكرية وإصابتها بالشلل!

الأمر الأول نجح من حيث انتشار الجند والحرس.

أما الثاني فقد فوجئوا بما لم يتوقعه أحد، فعند محاولة إياس بن مضارب القبض على الأشتر أثناء خروجه من داره فوجئوا بهجوم من أنصار الأشتر، انتهى إلى مقتل إياس قائد

شرطة بسيف الأشتر الذي احتزَّ رأسه، وأخذها حتى وصيد باب المختار.

وكان هذا إيذاناً بالتعجيل بانقلاب المختار.

وأمر المختار بأن ينادوا في كل مكان بالشعار:

- يا منصور أمت.

وأصدر قرارًا آخر بشعار جديد:

- يا لثارات الحسين.

ثم التفت إلى من حوله قائلاً:

- إليَّ بدرعي وسلاحي.

وأخذ يلبس زيه العسكري (...)

في صلاة الفجر، كان المختار يتلو النازعات نزعًا في صلاته بين ثلاثة آلاف وثمانمائة جندي من بين اثني عشر ألفًا بايعوه.

بينما كان جيش الحكومة الرسمية (عبد الله بن مطيع) في حوالي سبعة آلاف جندي، كان شمر بن ذي الجوشن (أتذكرونه) يقود ألفين منهم.

وانفجرت المعركة...

وانتقلت من شارع لشارع، ومن جبل لجبل ومن جبانة لجبانة.

واحتدمت في كل شبر من الكوفة..

وأريق دم وطارت رؤوس وتمزقت أجساد وأبدان لكن المعركة حسمت بانتصار مروع للمختار، وتم حصار القصر ثم اقتحامه والاستيلاء عليه، وانسحاب والي الكوفة إلى إحدى الدور البعيدة، تاركًا أشراف الكوفة يطالبون بالأمان من المختار في القصر.

ولما أصبح الصباح، أرسل المختار لوالي الكوفة الهارب بن مطيع، مائة ألف درهم وطلب منه الخروج من الكوفة نهائيًا لأن القصر للمختار.

وبسط المختار يده لكي يبايعه الناس:

- تبايعونني على كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين، والدفع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا.

ولما وجد المختار نفسه بين جنوده وأتباعه، ومبايعته وأنصاره أميرًا على الكوفة بقصرها وناسها وسجنها الذي ألقى فيه مرتين.

ولما وجد نفسه جالسًا على المقعد الذي جلس عليه عبيد الله بن زياد ينظر إلى رأس الحسين المذبوح على صوان مفروض أمامه.

التفت المختار إلى أصحابه وقال:

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [٣٣]

* * * *

(٣٣) سورة السجدة، آية ٢٢.

الثعابين !

واجه المختار بن عبيد – خطرين من الداخل والخارج بعد أن اعتلى عرشه وطال سيفه، وارتفع لــواؤه ورفرفــت رايته فوق قصر الكوفة.

خطر داخلي يتمثل في – أشــراف الكوفــة – الــذين يواجهونه لسببين كليهما كفيل بإحراق كل جســور التفــاهم والتفاوض التي قد يحاول البعض بناءها والعبور فوقها.

السبب الأول.. أنهم ضد أيــة حكومــة ثوريــة فــي المنطقة، حيث يمثل هذا طعنًا كاملاً على قدراتهم في استثمار النفوذ الاقتصادي الذي يتمتعون به، كما أنه يمثــل صــعود طبقة فقيرة ليست ذات نسب وراثي ثروي، أو أصل عــائلي قبلي يسمح لها أساسًا في الطموح للحكم.

كما أنه من الطبيعي أن يكون الأشراف قــد وطــدوا صلاتهم بالحكام السابقين ومدوا في نفوذهم وعتيِّهم، الأمــر الذي يجعل أي تغيير في الحكــم ضــررًا وضــرارًا علــى مستقبلهم.

«والله لقد تأمر علينا هذا الرجل بغير رضا منا – ولقد أدنى موالينا، فحملهم على الدواب، وأعطاهم وأطعمهم فيئَنا[٣٤] ولقد عصتنا عبيدنا، فحارب بذلك أيتامنا وأرملنا».

السبب الثاني، أن المختار خرج بدعوة الانتقام لم يكن ليسمح لنفسه – ولا يسمح له الآخرون، أن يتنازل عن هذه الواجهة التي قدمها لثورته، وهذا الشعار الذي رفعه، والقضية التي تبناها، ولأن الأشراف قد تورطوا حتى لحاهم في مقتل الحسين والتحالف مع عبيد الله بن زياد والي الكوفة السابق وقاتل الحسين.

ولأنهم كذا ينشرون سلطانهم ورعايتهم على عدد كبير ووافر من قتلة الحسين الذين شاركوا في جيش ابن سعد، ورفع كل منهم سيفه ورمحه، فإنهم أصبحوا الآن قاب قوسين أو أدنى من الانتقام، وأنه بمجرد أن يفرغ المختار من مواجهة الشام، وتدعيم موقفه عند ابن الزبير في مكة سيلتفت لهم بالسيف والحرق والتنكيل.

---

[٣٤] الفيء: هو الغنيمة التي تُجنى من الحروب.

أما الخطر الثاني القادم من الخارج ــ من الشام ــ فقد اجتمع جيش عبيد الله بن زياد (القاتل) على إمرة الآلاف المؤلفة للهجوم على الكوفة وقائدها الجديد وحاكمها المستقبلي المختار.

وكان هذا الموقف مرتكزًا على محورين أساسيين:

الأول: أن دعوة ابن الزبير أساسًا واستقلاله بحكم الحجاز كان أمرًا قد حسمت مواجهته من قبل مروان بن الحكم والدولة الأموية، وأن السلاح صار هو الفيصل الوحيد بينهما، ومن ثم كان الهجوم على إماراته ودويلاته أمرًا قائمًا مهما طال الوقت، حيث لن يستمر التقسيم كثيرًا.

وكان أمرًا مستحيلاً أن تسمح الدولة الأموية مرة أُخرى بانقسام الدولة إلى دويلات مستقلة منفصلة، وأن يخرج المختار مستقلاً بعرش الكوفة وطموحه لانتزاع البصرة وسائر العراق، بل وإرساله بمندوبين وجيوش وسفراء لفتح الدول المجاورة التي لم تفتح حتى الآن..

المحور الثاني: أن دم الحسين معلق في رقبة الدولة الأموية وأنهم الهدف الأول المباشر من دعوة المختار بالثأر، وأن قادة دولتهم العسكريين هم الذين ارتكبوا مذبحة كربلاء.

ومن ثم فنجاح المختار يعني ببساطة الإطاحة برؤوس الدولة.

وإحداث عملية خلخلة هواء الكائن الأموي الذي روع بحركاته انفصالية واستقلالية قلصت حكمه وهددت بقاءه رغم عمرها القصير!

وضع أشراف الكوفة أملهم كله في قدوم جيش الشام إلى حدود الكوفة والإطاحة برأس المختار، وكانوا بمثابة الطابور الخامس الذي ينتظر قدوم الجيش الخارجي، لإحداث أزمة في الجبهة الداخلية تفجر عجز الحكومة عن الاستمرار.

وبطبيعة الحال، فإن الأشراف لا يعنيهم أن انتصار عبيد الله بن زياد بجيشه على المختار يعيد الكوفة مرة أُخرى إلى حظيرة الدولة الأموية وينتزع منها ولاءها لابن الزبير وعاصمته!

ووصلت المعركة إلى حافة الروح، حينما انتدب ابن زياد ستة آلاف جندي، مقسمين لمعسكرين على رأس الأول ربيعة بن مخارق، وعلى الثاني عبيد الله بن حملة، لملاقاة جيش المختار بقيادة يزيد بن أنس.

وجرت موقعتان ناريتان، أطاح فيهما جيش المختار المعسكرين معًا وقتل قائديهما.. لكن يزيد بن أنس قائد الجيش لقيَ ربه بعد مرض أصابه. وبلغت الأنباء مداها، بأن جيش ابن زياد قادم بعد هزيمة طلائعه بثمانين ألف جندي ومقاتل، وأن هذا يعني موتًا أكيدًا لجيش المختار.

وأمر المختار قائده إبراهيم بن الأشتر بالخروج في سبعة آلاف لمواجهة ابن زياد وجيشه..

وما خرج الأشتر من الكوفة، حتى استيقظت عيون الأشراف والتمعت طموحاتهم، وقرروا الخروج والإطاحة بقصر الكوفة، وسيده المختار بعد أن سافر جنوده وذهبت جيوشه.

وحشد الأشراف القبائل وأنفقوا على الفرسان والعتاد، ووعدوا رجالهم بالنصر والفوز المادي الكبير، واتهموا المختار بالكذب والادعاء.

... وأدرك المختار في القصر خيوط الشبكة التي تلتف حول عنقه من ثعابين الكوفة، فأرسل من فوره إلى إبراهيم بن الأشتر أن يعود، واستغرق في مفاوضات طويلة مع

الأشراف لكي يكسب وقتًا، وهم يحاصرونه ويمنعون عنه الماء.

وعاد الأشتر بجيشة بعد ثلاثة أيام.. وأُسقط في يد الأشراف لكن السهم كان قد نفذ، ودارت معركة طاحنة، كان أشهر قادتها في جيش الأشراف، شمر بن ذي الجون ومحمد بن الأشعث وشبث بن ربعي ومعظم جنوده من قتلة الحسين..

وكان على رأس جيش المختار إبراهيم بن الأشتر.

وفي بحر الدم الذي جرى، انتصر الأشتر والمختار.

أخذ المختار يسير بين خمسمائة.. توقف أمام أحد الوجوه المأسورة، اقترب حارس منه وأشار إليه:

- هذا من قتلة الحسين.

نظر إليه المختار.. وهتف:

- اضربوا عنقه.

ويستكمل مسيرته ويقترب الحارس مشيرًا إلى أحد الأسرى.

- هذا ممن شهد مقتل الحسين.

- فيومئ المختار برأسه:

- اقتلوه.

في آخر ساعات النهار:

كان نصف الأسرى قد قُتلوا جميعًا..

وألقيت رؤوسهم على الرمال الساخنة..

مائتان وثمانية وأربعون رأسًا رأت بعيونها الحسين وقتلته!!

* * * *

الحصار....

الرياح التي تعصف بقوائم الخيل، وتثير سعف النخيل، وترفع ثرى الأرض عن موضعه، كانت ساخنة جدًا في الكوفة هذا الموسم، محملة بلون الدم ولزوجته وسخونته أيضًا.

فقد كان المختار مستقيمًا وواضحًا مع نفسه ودعوته للانتقام، عندما أعلن في اجتماع عسكري مع رجاله أن هناك ثلاث طرق للثأر من الحسين وقتل قتلته!

- الحرق بالنار.. تلك النار التي أشعلها القتلة في خيام وبيوت الحسين التي لجأت إليها النسوة والصبية، وألسنة النار التي ارتفعت فوق الخشب والقصب والحطب وراء الحسين حتى يأمن الغدر، يحرق بها القتلة وتتفحم أجسادهم وتتسلخ جلودهم ويلقون عذاب الدنيا.. قبل الآخرة!

- قطع الأطراف.. الذراعين بدءًا، ثم الساقين والقدمين، اللسان، ثم ترك القتيل حتى يموت وحده (.....)

إجابة على حز رأس الحسين وشق الرماح للصدور والظهور يوم كربلاء..

- الرمي بالنبال والرماح حتى الموت (..)

الموت انتقامًا..

الموت حكمًا.

الموت إدانة..

خطف فرسه، وألقى بجسده فوق سرجه، دفعه وأخذ يعدو، شمر بن ذي الجوشن ومعه نفر من أصحابه، يفرون من ذيول الهزيمة التي تلتصق بأدبارهم، ويسابقون سيف الموت المسلط على أعناقهم بعد هزيمتهم من جيش المختار في الكوفة.

كان شمر يهتز فوق فرسه، يرمق بعينيه الظلام الزاحف على الفضاء، وهو يتذكر ليلة جلوسه إلى جوار عبيد الله بن زياد في قصر الكوفة ممسكًا بسيفه، مشيرًا إلى كربلاء على ذلك الرمل المرسوم بصحراء العراق، طالبًا من

ابن زياد، الحزم والحسم في قتل الحسين، يتذكر زحفه بالجنود، ولحاقه بجيش عمر بن سعد وتولّى ميمنته، وتعبيته للعسكر والجنود، وتحذيره لهم من سماع خطبة الحسين.

كان شمر ينتفض على الفرس بين أنصاره، لاحقًا برمال الصحراء والنخيل يلوح بعينيه من بعيد كمشهد سقوط صحابة الحسين قتلى وصرعى وبقاء الحسين وحيدًا، يلتف حوله أربعة آلاف جندي دون أن يقربوه، فيصرخ فيه شمر تلك الصرخة التي ترن في رأسه وتملأ إذنه كنحلة ذكر:

- ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل.. اقتلوه.

بعد ساعات من اللهاث والجري بالأحصنة، أدرك شمر أن أحدًا يتبعه وأن فرسًا يدق بحوافره في ذات اللحظة التي ترتفع فيها حوافر فرسه، وبعين خبرت الغدر واحترفت الغيلة، يطلب من أصحابه أن يسبقوه حتى يصبح بمفرده، فيطمع فيه الفارس القادم وحده:

- اركضوا وتباعدوا عني لعل العبد يطمع فيَّ!

نفذ أصحابه الخطة السريعة البسيطة.

التفت شمر إلى الفارس، فوجده غلامًا صغيرًا مندفعًا غضًا، فدنا منه.. ودقَّ ظهره بالسيف.

وأكمل شمر رحلته تاركًا جثة الغلام، لاحقًا بأصحابه حتى نزلوا إلى جانب قرية، يقال لها «الكلتانية» على شاطئ نهر وإلى جانب تل، عسكر شمر على الشاطئ المقابل للقرية، يلمح عنده روابيها وشجرها وبيوتها... وأخبر أصحابه أنهم سيبيتون الليلة في هذا المكان ويرسلون منه إلى مصعب بن الزبير (شقيق عبد الله بن الزبير) تمهيدًا للجوء إليه والتستر بحكم أخيه ورايته.

واستدعَى شمر أحد العبيد الأعاجم من القرية وكتب له رسالة إلى مصعب وأمره بالذهاب إليه من توه. فمضى الأعجمي حتى نزل إلى قرية مجاورة، أدهشه ما بها من فرسان وأحصنة وأسلحة كأنها على حافة الحرب، فهبط عن فرسه وتحدث مع أحد الأعاجم الذي لقيهم صدفة، وبينما هو يبث تعبه ورحلته لصاحبه إذا برجل يمر فيسمع كلمة "شمر" ودنا منهما وسأله عن معرفته بشمر هذا، فأخبره الأعجمي بالقصة كاملة، فأخذه الرجل من يده وذهب إلى "أبي عمرة" وهو صاحب المختار الذي أرسله للقيادة المسلحة لهذه القرية لكي تكون حصناً بينه وبين البصرة.

وأخبرهم الأعجمي بمكان شمر بن ذي الجوشن..

كانت الذئاب تعوي في الصحراء، ويشق جريها المفزع الخيام التي لجأ إليها شمر وأصحابه، الذين طلبوا منه الارتحال عن هذا المكان لكنه أبى ورفض.

وبينما الليل يجثو على الصدور والخيام والعيون..

وبينما الذئاب تعلن عن وجودها بالعواء والجري..

كانت حوافر الخيل تشق الطريق إلى الخيام.

فوقها رجال المختار يعدون بسيوفهم ورماحهم في الهواء فتبرق في الليل المحيط.

اقتربوا وكبروا..

فانتفضت الخيام بالرجال مفزوعين يجرون في كل مكان محاولين المقاومة، وإذا بشمر يخرج من خيمته مضطربا تفجؤه الصدمة، مأخوذًا وهو يستر عريه وبرصه[٣٥] برداء واسع بعد أن أعجزته المفاجأة عن استكمال ثيابه ولبس سلاحه (...) خرج بالرمح في يده..

والحقد والخوف والزعر واليأس والتنمر تحشو نظراته.

---

[٣٥] كان مريضًا بالبرص.

جرى عنه أصحابه، وفرَّ عنه رفاق رحلته..

انغرستْ في جسده السيوف والرماح من كل جانب..

وتفجرت مواسير الدم من جسده تداري عريه وتستر برصَهُ.

وصاح رجال المختار:

- الله أكبر... قتل الخبيث.

ولما وصلت أصداء الصياح والتهليل إلى أصحاب شمر الهاربين أيقنوا أنه قد قتل!

* * * *

أين الحسين.....؟!

قام المختار من مقعده، منتفضًا مــدويًا، وقــد تشــنج جسده، وارتعدت عينه، ملوحًا بيديه، ضاربًا قدميــه بــلاط القصر الذي ران عليه السكون وتقوقع من فيه في الصمت.

صرخ المختار:

- أين الحسين بن علي؟ أعيدوا إلى الحسين! أريــده هنا.

واقترب من الرجال الذين اصطفوا أمامــه، يرتــدون الخزي والعار..

أمسك المختار بهم، وقد أرعبتهم نظرته..

- يا أعداء الله، وأعداء كتابه وأعــداء رســوله وآل رسوله أين الحسين بن علي، أدوا إلــى الحســين، قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه في الصلاة.

وفي لهجة غارقة في الخشوع والخضوع والذل:

- رحمك الله... بعثنا ونحن كارهون، فامنن علينا واستبقنا[٣٦] فاخترقهم المختار بفحيح صوته:

- فهلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيّكم، واستبقيتموه وأسقيتمُوه؟

واقتحم المختار الهواء المحيط بأحدهم.. دنا منه وعرفه، أنه مالك بن النسير ذلك الذي ضرب الحسين بالسيف على رأسه فقطع غطاء رأسه (البرنس) أغرقه في الدم.. ثم سرقه ومضى، حاصر المختار مالك بذراعيه، هز جسده الغارق في الارتعاش.

- اقطعوا يدي هذا الرجل ورجليه، ودعوه ينزف الدم حتى يموت.

والتفت للآخرين:

- واقتلوا هؤلاء.

ذهبوا بمالك بن النسير مدلي الرأس، محني الظهر، يذكر يوم دخل على زوجته ببرنس الحسين، ففزعت منه وطلبت إليه هجرانها وعنفته:

---

[٣٦] اتركنا.

- أتسرق ابن بنت النبي وهو مقتول مسفوح الدم؟!

استسلم مالك للسيوف.. تشطر أطرافه وتقطع لحمه.. وفي بحيرة من دم.. مات بعد نهار مضَى..

كانت هناك أربعة رؤوس جديدة معلقة في سوق الكوفة..

وكان العابرون والذاهبون، الراكبون فرسهم ودوابهم، والسائرون على أقدامهم، كان الرجال والصبيان والنساء والفتيات والأطفال واللاهون اللاعبون في ساحة السوق يحيطون بالجمع الذي توافد إلى الساحة، يتابعون صعود السيوف في الهواء، وسقوطها على أعناق أربعة من قتلة الحسين.

بعض الناس هللت وكبرت.

وآخرون أغمضوا عيونهم..

وبعض آخر تذكر ليلة مقتل الحسين..

وسيطرت على الأحاديث كلها، ذكريات دوران رجال ابن زياد في أنحاء الكوفة برأس الحسين معلق على خشبة..

لا الرؤوس تتساوى.

ولا الدماء تشبه بعضها.

حاصر الجند اثنين[٣٧] من الذين شهدوا قتل الحسين، واشتركوا في قتل عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب وفي سلبه، كان الاثنان يختبئان في جبانة، حتى تهدأ بعض الضجة، ويستطيعان الهروب إلى الجزيرة العربية، لكنهما سمعا حوافر الخيل، واصطكاك السيوف وهمهمات الشرطة، فأدركا أن الموت محيق بهما.. حتى أحاطت بهما الأيدي وقادتهم إلى الموت، وفي موضع "بئر الجعة" ضربت أعناقهما.

وجرى عبد الله بن كامل[٣٨] ليخبر المختار بخبرها.

لكن على عكس ما توقع تمامًا، ران المختار صمت وتحديق. ثم أشار إلى صدر ابن كامل.

- اذهب فارجع إليهما واحرقهما.

ولما مضَى ابن كامل إلى الباب لينفذ أمره.

قال المختار:

---

[٣٧] هما عثمان بن خالد بن أسير وأبي أسماء بشر بن سوط.

[٣٨] أحد أهم الرجال الذين ساعدوا المختار على الانتقام.

- يا ابن كامل.. لا يدفنان حتى يحرقا.

ونفذ ابن كامل الأمر!

بينما المختار يسير في أنحاء الكوفة يتفقد الحال ويبحث مخابئ القتلة وملاجئ الفارين، جاءه الرسول مسرعًا أن رجاله أحاطوا بخولي بن يزيد، الذي احتزَّ رأس الحسين، وأدخلوا عليه منزله، ذات المنزل الذي دخله خولي منذ أربع سنوات مغرورًا بانتصارهم، فرحًا بسلطانهم، يحمل في جواله رأس الحسين الشريف. عينان ما زالتا معلقتين بجسده الملقَى على الرمال، غارقًا في الدماء والطعان، وأمر شمر بن الجوشن يصك أذنه، اهبط فاحتز رأسه.. يذكر دخوله حتى الهواء الفاصل بينه وبين جسد الحسين، تردده وخوفه.. تقدمه ورجوعه، اقتاحمه وانسحابه، رفع السيف، نزوله من الهواء، ارتجاجه، هبوطه حتى العنق، اصطدامه بالرقبة، انبثاق الدم، فصل العنف، ثقل الرأس، ظلام القلب، ارتعاش البدن، ركوب الفرس، الذهاب للقصر، غضبت زوجته عليه لما دخل عليها برأس الحسين وخز الشوك في صدره، رعبه من الموت، انتظار وقوعه بعد انتصار المختار، اختفاؤه عن الأنظار، اللجوء إلى الجدران، تفكيره في الفرار من الكوفة،

سماعه لاقتحام الرجال المنتقمين لباب داره، لهاثة بحثـًا عن مخبأ، سؤالهم لزوجته وكانت زوجته لما سألوها عنه أجابت:

- لا أدري أين هو؟

ولكنها أشارت بيدها إلى مكان...

فدخلوا عليه ووجدوه.

وهنا.. أرسلوا في حضور المختار..

هرول المختار إليهم..

وإمام أهل الكوفة بن يزيد صاحب رأس الحسين وبين حضور المئات من أبناء الكوفة إلـى المكـان، واحتشـادهم للنظر فيما يحدث..

وترقبهم لعقاب المختار.

التفت المختار وهو يراقب الجموع المحتشدة المنتظرة.

وأطلق قراره.

- أشعلوا النار.

أوقدوا نارًا مرتفعه الألسنة، مشروعة الأسنة، وأخذوا خولي بن يزيد، أحلوا قيده، وانكب على الأرض، وارتفعـت السيوف وعبأت جسده بالطعن..

قبل أن يلفظ روحه..

ألقوا به في النار..

ولم يتحرك المختار حتى أمعـن النظـر فـي النـار المشتعلة..

وأدرك أن خولي بن يزيد الذي تجرأ يومًا وزحف نحو جثة الحسين، وذبح رأسه.. قد مات وتحول إلى رماد!

* * * *

ولا سواء........!

كان عمر بن سعد بن أبي وقاص، يسير على نار متأججة من القلق والرعب (....)

وقد تعود من زمن على ارتياد الخوف وترويضه منذ بدأت نداءات الانتقام تلتفت إليه أول ما تلتفت – فهو قائد الجيش الذي حارب الحسين وقتله.. وهو القائد الذي ألقى سهمه من قوسه، وأشهد الجميع أنه أول من رمَى!

عمر بن سعد الذي قاد الأربعة آلاف جندي حتى قتلهم الحسين!

نسيَ عمر تاريخ أبيه العظيم فاتح هذه البلاد وما وراءها، نسيَ سعد بن أبي وقاص المبشر بالجنة، أول من رمى بسهم في الإسلام (..) مقبول الدعوة، القائد الفذ، المسلم التقيّ الورع. نسي أباه.. وتاريخه..

لأنه ببساطة نسي دينه.. ونبيه.

شيء واحد كان يرقص أمام عينه، إمارة الري والاقتراب من النفوذ والسلطان، والاستقرار على مقعد السلطة مدفوعًا بنقص إمكاناته عن الوصول إلى مكان أبيه، وعلة أخلاقه عن الوصول إلى محبة الناس، وضعف مواهبه عن الوصول إلى كبرياء، وشمم الصالحين..

لأنه لم يكن وراءه إلا هذا..

فلم يكن أمامه إلا أن يقتل الحسين!

ورغم أن بعض الأمن قد تسرب إلى قلبه لما سكت عنه المختار كل هذا الوقت وأرسل له بالأمان بشرط ألاَّ أنه يحدث حدثًا[٣٩] إلاَّ أنه بدأ ينقل من مكان لآخر، ولا يبيت في مكان واحد ليلتين متعاقبتين لكن لما أعياه الانتقال والرحيل اليومي والقلق القاتل، عاد إلى داره وكان يبلغ المختار كل تحركاته ولفتاته وإشاراته.

وكان يقول:

---

[٣٩] يحدث حدثًا.. ضمن معانيها أيضًا، البول أو إتيان الريح والتبرز وكان المختار يفسرها هكذا على سبيل السخرية.

- إن في عنقه سلسلة ترده لوجهه، إن يطير لأدركه دم الحسين فأخذ برجله، وأرسل إليه من فوره أبا عمرة أحد رجال الأقوياء.

دخل أبو عمرة منزل عمر بن سعد، فلمحه الأخير، فبهت وتجمد وفزع.. ثم حاول الفرار، فانسدت في وجهه الطرق وأظلمت في عينيه الدار، فتعثر في جُبته، واشتبكت رجله في ثوبه.. فسقط... فاقترب منه أبو عمرة، وتأمل سقطته وعثرته.. ورفع السيف فأهوى عليه وقتله.

ورفع خنجره فاحتزَّ رأسه.

وأخذ رأسه ومضَى إلى المختار.

كان المختار قد جلس مطمئنًا إلى إحكام قبضته وتمكن قادته وتحقق انتقامه، وهو يراقب حفص بن عمر بن سعد الذي دعاه لزيارته في قصره حينما دخل أبو عمرة بالرأس مذبوح ملفوف.

- أتعرف هذا الرأس؟

أدرك حفص أن الرأس رأس أبيه.. وبين دموع وندم وإشفاق وفزع قال:

- نعم ولا خير في العيش بعده.

قام المختار من جلسته:

- صدقت.. اضربوا عنقه..

وقتلوا ابن عمر..

ووقف المختار بين الرأسين.

- هذا بالحسين وهذا بعلي الأكبر بن الحسين.. ولا سواء..

والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله!

حتى من رمى الحسين بسهم لم يصبه..

أصابته دائرة الانتقام.. التي باتت فخًا عنكبوتيًا لكل الحشرات التي شاركت في المذبحة!

جثا حكيم بن طفيل الطائي على ركبتيه لاهثًا مذلولاً..

- تعلق سهمي بثيابه وما ضره.

لكن رجال المنتقم قيدوه.. ووضعوه أمام جدار في الكوفة ونصبوه غرضًا لنبالهم وأسهمهم..

وصرخوا فيه:

- سلبت ابن علي ثيابه – والله لنسلبنَّ ثيابك وأنت حي تنظر، واقتربوا منه، وبدأوا ينتزعون عنه ثيابه قطعة ثم عادوا وقالوا:
- رميت حسينًا واتخذته غرضًا لنبلك.. وأيم لنرميك كما رميت بنبال ما تعلق بك منها أجزاك.

إذا كانت الأسهم والنبال التي أطلقها لم تصب الحسين – فإنهم سيطلقون عليه – كما أطلق – نبالاً لا تصبه – كما حدث مع الحسين – لكنهم – كما فعل هو أيضًا – لقوا النبال – دفعه واحدة ورشقة واحدة خرجت منهم جميعًا..

ورشقته النبال.. ما تعلق منها في ثوبه.. أو في جوفه..

وخرَّ ميتًا!

كذا...

ذلك الرجل الذي رشق عبد الله بن ملسم بن عقيل وهو صبي صغير يقف وسط المعركة، المذبحة، يوم كربلاء، واضعًا كفه على جبهته من هول ما يرى، رشقه بسهم ألصق كفه بجبهته، ثم رماه بسهم آخر قتله (....)

ذلك الرجل زيد بن وقاد الذي دعا عليه الفتى:

- اللهم إنهم استغلونا واستذلونا، اللهم فاقتلهم كما قتلونا، وأذلهم كما استذلونا! التقوا حول بيته وأمرهم ابن كامل:

- لا تقربوه بسيف، ولا تطعنوه برمح، لكن ارموه بالنبل، وارجموه بالحجارة؛ فانهمرت عليه النبل والحجارة من كل جانب، وهو مكشوف لهم تمامًا.. وسقط مسكوبًا في الدماء.. فقال ابن كامل..

- إن كان به رمق فأخرجوه..

- أخرجوه – فقد كان به رمق – فدعا ابن كامل بنار، فأشعلوها وعلا أوارها وارتفع.

وكان زيد يرمق – وهو بين الموت والحياة – النار المشتعلة ويتمنى أن يخطو خطوته الأخيرة نحو الموت قبل أن تمسه النار وتحرقه رمادًا.

لكنه بعينيه رأى الرجال يجرون عظامه المكسورة، ويقودونه حتى النار وألقوا به حيا داخلها (!!)

وأمر المختار فحرقت ديار وتحطمت بيوت، عاش فيها قتلة الحسين أو هربوا إليها أو اختبأوا داخلها حتى أوشك

على القضاء على جيش القتلة جميعهم.. إلا من مـــات قبـــل دعوته بالانتقام، أو انقعد أثره وابتلعته الأرض (...)

ولم يعد هناك إلاه..

هو .. عبيد الله بن زياد..

ابن مرجانة القاتل...!

* * * *

أرسلوها للمختار.......!

«هذا قاتل ابن بنت رسول الله ﷺ قد جـاءكم الله بـه، أمكنكم الله منه اليوم، فعليكم به، فإنه قد فعل ابن بنت رسول الله ما لم يفعله فرعون في بني إسرائيل، هذا ابن زياد قاتـل الحسين الذي حال بينه وبين ماء الفرات، أن يشرب منه هو وأولاده ونساؤه ومنعه أن ينصرف إلى بلـده، حتـى قتلـه، ويحكم اشفوا صدوركم منه، وأرووا رماحكم وسيوفكم مـن دمه، هذا فعل في آل نبيكم ما فعل، وقد جاءكم الله به...».

وقف إبراهيم بن الأشتر في جنده خطيبًا، على فرسه، وبين رحله، يمر بين الصفوف، ويرفـع الكـف، ويشـرع السيف، ويزأر بالحرف، ويؤكد الصوت يحشدهم ويـدفعهم.. أمام جيش عبيد الله بن زياد القادم مـن الشـام لنحـر رأس الأشتر ثم الإطاحة بالمختار وثورته وانتقامه ودويلته.

كان عبيد الله بن زياد وسط حراسه، في جيش تجاوز الستين ألفًا من الجنوب، أمـام سـبعة ألاف جـاءت خلـف

الأشتر.. لذلك كان واثقًا تمامًا من أن النصر حليفه، وأنه سيفر من ربقةِ الانتقام ودائرته التي تحيط بقتلة الحسين...

ارتدى لباسه العسكري وتعطر بالمسك وتحسس لحيته.. ما زال ابن مرجان يذكر قصة الكوفة يوم دخله متسللاً في الظلام وقد امتلأت المدينة بأنصار مسلم بن عقيل – وما زالت تخرق أذنه صيحات الآلاف الأربعة الذين أحاطوا بالقصر وهددوا رأسه بالسقوط وحكمه بالضياع.

معلقة في سيف رأسه صورة المختار ليلة دخل عليه ساحة القصر طازجًا برائحة السجن، ليلة تحذيره من البقاء في الكوفة أكثر من ثلاثة أيام بعد الإفراج عنه، وألا أحل دمه وأبرأ ذمته. العين الواحدة التي تنفث غضبًا ووعيدًا، الجسد الهائل الذي ينم عن قوة لا ترحم وعزم لا يفل.

كانت أنباء انتصارات المختار وانتقاماته تشق صدره وأذنه مع تساقط قاتلي الحسين.. لم يعد إلاه.. وحده!!

مطلوب دمه، ومهدده روحه مطارد جسده!

- آه يا أم..

- يتذكر أمه الطيبة مرجانة، يوم أدركت ابنها قاتلاً للحسين؛ فالتاعت وفزعت وتطيرت واغتمت وتحزَّنت وتأوهت:

- يا خبيث... قتلت ابن بنت رسول الله.. لا ترى الجنة أبدًا!

خرج بن زياد من خيمته والكون ما زال يصحو لحظة السحر، حينما سمع صوتًا ينادي وهمهمة ترتفع:

- لقد جاءوا...

جاء ابن الأشتر، ثقب الصوت رأسه، وعلم أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الأمر لا يعني هزيمة جيش الشام أمام جيش المختار والعراق فقط.. ولا يعني انتصاره وعودة البصرة والكوفة والعراق بأسرها إلى الملك الأموي فقط (...) إنه يعني شيئًا واحدًا له.

إن انتصاره يعني بقاءه حيًا ونجاته من الانتقام..

وإن هزيمته معناها تمزيق جسده إربًا تحت أقدام المختار، لهذا دخل المعركة.

وهو يدرك أنها معركته هو شخصيًا.. لا معركة الشام ولا معركة مروان، ولا الستين ألف جندي.

إنها معركته وحده.. قاتل الحسين مع المنتقم..

وتقاتل الجيشان قتالاً كثيفًا دمويًا وخطيرًا..

وانكشف جيش المختار ثم عاد والتئم..

وانتصر جيش زياد ثم عاد وانهزم...

وشدد الأشتر من قوة المعركة حيث دخلها بنفسه، فجعل يقتل فيهم كما تقتل الخراف صبيحة عيد الأضحى، وبدأ القتلى يتساقطون بالمئات، و قد أحس الأشتر أن النصر نصره...

وخلت الصحراء من أي شيء إلا الجثث، التي غطت الرمال وضيقت على العين رؤية انطباق الأفق (...)

ووقف الأشتر بين صحبه المنتصرين المنتقمين..

وقال لهم:

- التمسوا في القتلى رجلاً.. ضربته بالسيف فنفحتني منه ريح المسك شرقت يداه وغربت رجلاه وهو واقف عند رايةٍ منفردة.

وبحثوا عن الرجل.. ووجدوه...

لقد كان عبيد الله بن زياد....

ولقد شقَّه الأشتر شقين، قسمه السيف قسمين...

ذهبت يداه شرقًا.. ورجلاه غربًا... وغطَّى الدم ما بين نصفيه المنفصلين.

- إنه عبيد الله بن زياد...

أخبروا الأشتر... فحمد الله وأثنى عليه:

اقطعوا رأسه وأرسلوها للمختار!

* * * *

دائرة الانتقام......!

إنما أنا رجل من العرب، رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجده[٤٠] انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم... إلا أني قد طلبت بثأر أهل بيت النبي – صلى الله عليه وسلم إذا نامت عليه العرب، فقتلت من شرك في دمائهم، وبالغت في ذلك على يومي هذا.

هذه هي مقولة المختار الثقفي التي تمثل مفتاحًا لفهمه تمامًا..

قالها وهو يخطو نصف خطوته الأخيرة نحو الموت، حينما حاربه المصعب بن الزبير حربًا لا هوادة فيها، استمرت وقتًا غير قصير، وسقطت دماء حتى المناكب، وانتزعت فيها الرماح واختلطت والتحمت فيها السيوف.

---

[٤٠] زعيم انفصالي في اليمامة.

وقتل المختار بعد أن صار في تسعة عشر فقط من جنده، وقرر الباقون الاستسلام (...) قتل المختار بعد أن أنهى حياة قتلة الحسين، وذلك في رمضان سنة سبع وستين عن عمر سبعة وستين عامًا..

ولقد كان المختار شخصًا غير عادي بكل المقاييس بما يملكه من دهاء سياسي، وقوة إرادة، وخطابة بليغة، وحسن إدراك وتدبير، وقدرة على جذب الجماهير والاستحواذ على مشاعرهم وإدارة قادته ورجاله وإقناعهم..

لماذا أراد المختار الثأر؟

الثابت أن المختار كان من الشيعة الذين تعلقوا بحب بيت أهل النبي، وانتموا إلى إيمان مطلق بمكانة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، والثابت أيضًا أنه خرج لنصرة الحسين، لكن السجن حال دون هذه النصرة، التي نعتقد أنها ما كانت لتضيف شيئًا لما حدث.. ولكن، فيما أعتقد أيضًا، كانت بداية التحرك الرئيسي في نفس المختار تجاه الثأر بهذا العنف، كانت في السجن وبعد اعتقال ابن زياد له.. وشطر عينيه!

في السجن كان قرار المختار بالانتقام.. وكان إحساسه بذاتِهِ قد بلغ مدى عاليًا، وكانت أيضًا حالة التأمل والتفكير بين جدرانه والتي ساهمت في كشف المستقبل ومحاولة قراءة القادم..

وكان طبيعيًا عندما يدرك المختار ملابسات المذبحة التي جرت أن تجرحه في غشاء قلبه تمامًا، وكذلك في كبريائه حيث اعتقد أنه شارك بشكل ما، بسجنه، في خذلان الحسين، كما أنه كان ناقمًا تمامًا على موقف أهل العراق وخاصة الكوفة..

ومحمولاً بكراهية لا حد لها للبيت الأموي، وعبيد الله بن زياد على وجه التحديد.

أصبح الثأر واجبًا لأنه على قدر ثأره من قتل الحسين على أرض كربلاء، كان ممكنا أن يخرج المختار بدعوة انفصالية استقلالية ضد الأمويين أيضًا.. ليس فيها شعار الثأر!

وكان المختار مدفوعًا بالبحث عن الملك والحكم...

لماذا؟

لأنه لو كان يريد انتقامًا من قتلة الحسين، كان من الممكن، ببساطة أن يشكل فرقًا استشهاديَّة ويقود حرب عصابات محدودة العدد، سهلة التحرك سلسلة النفاذ، خارقة النتائج.. وكان يمكن، وهذا ما تثبته أوراق التاريخ، أن يصل إلى غرف نومهم وإغراقهم بالدم!

إذا كان يريدها انتقامًا..

لكنه كان يريد الحكم والملك أيضًا، فقد رأى عبد الله بن الزبير ويزيد، وكلاهما في نظره أقل كفاءه منه وأدنى منزلة وأضعف قوة، إلى جانب طموحه الواسع وشجاعته النادرة وروحانيته المعروفة وحبه للحسين وتشيعه لعلي.. إلى جانب هذا كله فإن البحث عن الملك كان الأساس!

بينما وضعت دعوة الثأر كواجهة تضفي عليه مصداقية الشرعية هذا أولاً..

ثانيًا تجعله ينطلق في البداية من قاعدة جماهيرية واسعة وقوية هي الشيعة.

ثالثًا تضمن له بقاء وخلود يتمناه ويرجوه ويسعى إليه حال فشله أيضًا لكن كل هذه الأمور اتسعت واشتدت إلى ما فيه من مبالغة وشطط أحيانًا..

فقد كان الانتقام مروعًا وعنيفًا وجماعيًا ونادرًا، ورغم أن إحساسه بالتشفي والشَّماتة، قد لا يخفي، يجول في الخواطر أثناء زيارة التاريخ ورؤية نهاية الطُّغاة...

لكن لا نستطيع أن نخفي أيضًا تزمُّرَنا من الدموية والتصفويَّة والسَّاديَّة التي اتسمت بها علميات الانتقام وما شملته من عمليات تمثيل بالجثث، وتحريق وتقطيع أطراف وقتل جماعي ورجم بالحجارة وموت بطيء.. وبحور دم لا تنتهي..

وكلها أفاعيل حتى وإن لجأ إليها القتلة من قبل، فما كان يرضاها الحسين العظيم ولا الضمير الإنساني..

وقد روت بعض المصادر التاريخية أن المختار ادعى النبوة، وأنه زعم أيضًا أنه يستقبل الوحي ويراه..

لكن ضعف وهشاشة الاتهام بادعاء النبوة يجعلنا نتجاوز إلى الاتهام الحقيقي الثابت وهو أنه زعم أنه تلقى وحيًا..

وقد قيل لابن عمر وهو وإن كان صِهر المختار، إلا أنه عالم عادل لا يخشى في الحق لومةَ لائم، ومن أكثر أتقياء عصره وأرفعهم قدرًا وأجلهم علمًا..

قيل له: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه.

فقال: صدق.. قال تعالى ﴿ **وَإِنَّ الشَّـيَاطِينَ لَيُوحُـونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ**﴾ [٤١]

وهناك قرائنٌ كثيرة تثبت قدرة المختار بالفعل على التنبؤ واتصاله ــ بشكل ما ــ بالغيب وقراءته.. فكما روينا في صفحات سابقة عن طلبه لأحد أصحابه أن يحفظ عنه ما يقول لأنه سيتحقق.. وتحقق بالفعل! وقوفه أيضًا على المنبر قبل انتصار إبراهيم بن الأشتر على جيش زياد، وأخبرهم ببشارة النصر قبل أن يجيء الخبر (..)

"أكان ذلك تفاؤلاً منه؟ أو اتفاقًا وقع له – أو كهانة" !

ونحن لا نميل لترجيح أحد التفسيرات، لكننا نعتقد أنها كلها تدخل في إطار تلك الشخصية غير العادية.

عندما أسر سراقة بن مرادس أحد المحاربين ضد جيش المختار في موقعة من معارك الحرب الأهلية التي

---

(٤١) سورة الأنعام ، آية ١٢١

جرت مذابحها في الكوفة أقسم أنه رأى الملائكـــة[٤٢] علـــى الخيول البلق بين السماء والأرض وأنه لم يأسر إلا واحدًا من أولئك الملائكة فأمره المختار أن يصعد ويخبر الناس بـــذلك فلما نزل خلا به المختار وقال له:

- أني قد عرفت أنك لم تر الملائكة وإنما أردت بقولك هذا أني لا أقتلك ولست أقتلك فاذهب حيث شئت لئلا تفسد عليّ أصحابي (...)

أى أن المختار كان يدرك أن مسألة اللعب في دائـــرة علم الغيب لها حدود، وأن الأمر ليس مفتوحًا إلى حد ادعـــاء نزول الملائكة، ولكنه استغل ذلك أيضًا في الدعايـــة حولـــه وإعطاء هالة تقديس ما، وهو شيء يتسق مع طبيعة المختار أيضًا كما أنه وضع للأمر حدًا حتى لا يفسد أصـــحابه بـــين مكذب وبين معتمد على حرب الملائكة نيابة عنه (!!)

وهو ما أفلت منه أحيانًا بالفعل، خاصة فيمـــا يتعلـــق بواقعة الكرسي، ذلك الذي ادعى أحد صحابته أن أباه كـــان يجلس على الكرسي فيرى الغيب ويصل منـــه للمـــأمول –

---

[٤٢] لاحظ أن شيئًا من هذا «وهو غير صحيح في كل الأحوال» قد قيل عن الملائكة التي حاربت مع الجيش في حرب ١٩٧٣.

فأخذه المختار وحاول أن يقيم نفس الهالة والدعاية – المجانية – له – لكن لما صادف انتصار الناس علـــى جـــيش الشـــام والكرسي معهم – اعتقدوا فيه وهمُّوا أن يفتنوا به (..)

ويظل السؤال:

هل تحقق الثأر من قتلة الحسين؟

أبدًا.. هذه هي الإجابة وبعد كل الدم الذي أريق والقتلة الذين ذبحوا بذات الطريق!

أبدًا.. هذه هي الإجابة.

فلم يكن خروج الحسين ولا قتاله ولا شهادته.. طلبًـــا للحكم!

ولم تكن مقاومته ونضـــاله وإصـــراره طلبًـــا لنفـــوذ وسلطان!

كان العطاء الاستشهادي للحسين نموذجًا للارتكاز على الحق والاستناد على العدل.. كان استشهاد الحسين نموذجًا لنا من أجل الوقوف ضد الظلم بما أوتي لنا من قـــوة إيمـــان – وبدن مقاومة الظلم والجور حتى آخر قطرة دم.

لكن المختار..

- لم ننتقم ولم يُثأر للحسين..

- نعم قتل القتلة والسفَّاحين – ولكنه هنا.. لم يكن خالص النية في انتقامه وهذا الحد الأدنى!!

ولم يكن باحثًا عن العدل.. وإنما إلى الملك والحكم كان يسعى..

حتى عندما وصل إليه على جسر طلب دم قتلة الحسين كان ما فعله عندما جلس على ذات المقعد الذي جلس عليه ابن زياد.. أن تحول إلى حاكم فردي وملك منفرد وأعمل نفس قواعد الحاكم الطاغية الديكتاتور..

قتل وسفك الدم، وبحث عن التوسع ومع النفوذ، وحروب أهلية لا تنقطع، وادَّعى الوحي والحكم الإلهي.

انتصر المختار لدم الحسين..

لكنه لم ينتصر لقيمِه وشهادته وعدالته ومبادئه..

بل لقد صب المختار ماء الانتقام في نفس المصب المسموم الذي رفض الحسين أن يقترب بفمه منه!! وحاربه وقاتله.. مصب الظلم والدم والسلطان..

مصب الدنيا المستندة إلى السيف والسلطة والباطل.

قتل المختار قتلة الحسين.. نعم.

لكنه لم يثأر له..!

نهاية

ظل المختار وحيدًا بين ١٩ جنديًا.

هذا كل ما تبقى له..

جيش ضخم تراجع وتقلص أمام جيش مصعب بن الزبير.. لقد نجح المختار في إلحاق الهزيمة بالأمويين لكنه نال الهزيمة من شقيق الزبير..

وتبقى له ١٩ جنديًا فقط نصحوه الاستسلام.. لكنه رفض تمامًا.. وظل يقاتل وحده جيش معصب.. حتى مات..

بعد موته خلت العراق لمصعب بن الزبير..

فنظر من قصره ماذا يفعل برجال المختار وشيعته وأهله وأنصاره من الشيوخ والنساء والأطفال..!!

كانوا ستة آلاف ينتظرون ماذا يُفعل بهم مصعب؟ أشار عليهم بعضهم أن يقتل هؤلاء.. وآخرون نصحوه أن يخلي سبيلهم...

و... كثرت المشورات والنصائح..

لكن مصعب اتخذ قراره وأصدر قراره:

- اقتلوهم.

ثم دفنوا ستة آلاف جمجمة في الصحراء.